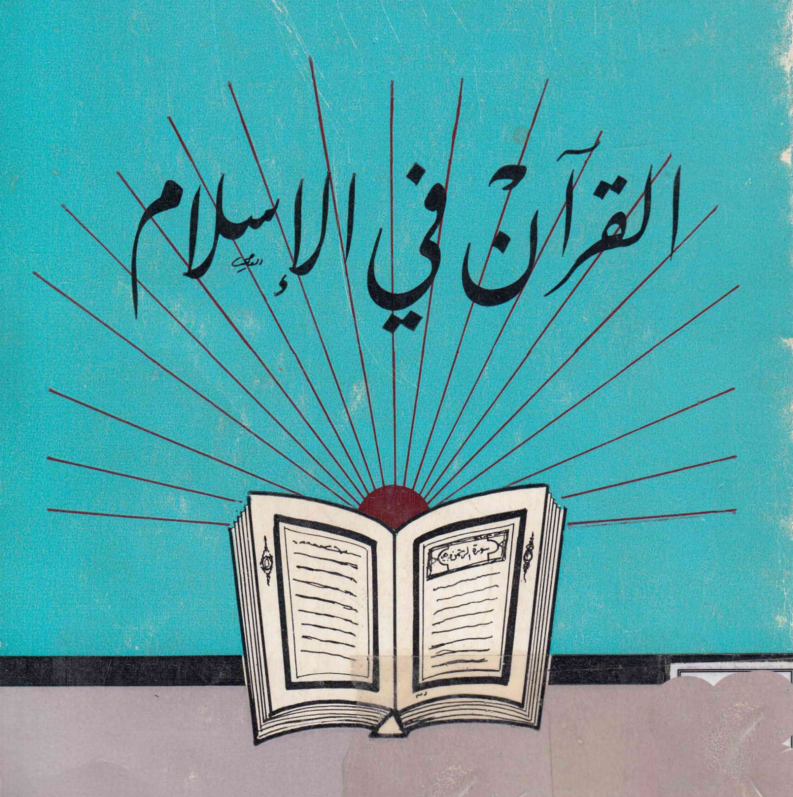
الأستاذ العلّامة
السيّد محمد حسين الطباطبائي

القرآن في الإسلام



تعريب
السيّد أحمد الحسيني

...ـزاء(ع)
...شر والتوزيع
بير... - لبنان

القرآن في الاسلام

الأستاذ العلّامة
السيّد محمد حسين الطباطبائي

القرآن في الإسلام



تعريب
السيّد أحمد الحسيني

دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

طبعت في بيروت ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتـاب الذي بين يدي القارىء الكريم يبحث عن أهم مصادر الشريعة الاسلامية، والموضوع الذي يتناوله هو «أهمية القرآن الكريم» في العالم الاسلامي، فيتحدث عن :

ما هو القرآن ؟
وما قيمته لدى المسلمين ؟
القرآن كتاب عالمي دائم .
القرآن وحي سماوي وليس من ابداع الفكر الانساني .
القرآن والعلوم .
صفات القرآن .

وفي الحقيقة نتحدث في هذه الرسالة عن كتاب لا يترددفي اعتباره واحترامه وقدسيته أيّ واحد من المسلمين، مع مـا مني بـــه الاسلام – كبقية الأديان الكبيرة الاخرى – من الاختلافات الداخلية والتفرق المذهبي ...

ومن هنا نهدف في بحثنا هذا الى التعريف بأهمية القرآن الكريم كما يـدل عليه هو بنفسه لا كما نعتقـده ونتصوره نحن

وواضح أن بين هذين الموضوعين فروقاً كثيرة لمن أمعن النظر.

وبلغة أجلى: ان الأهمية التي نتصورها نحن – كان عليها دليل ام لم يكن – لاتخلو من أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن تكون مناقضة ومخالفة لما في الآيات القرآنية فليس لها قيمة في عالم الحق والحقيقة، وإما أن تكون مما لم نجد في القرآن دليلاً عليه فلا يمكن اقناع كل المسلمين به لأنهم مختلفون فيما بينهم. فاذاً لا بد من معرفة أهميته من آياته والدلائل الموجودة فيه.

فعليه لا محيص من الاجابة على هذا السؤال: مــاذا يقول القرآن في الموضوع ؟ لا الاجابة على: ماذا نقول نحن الذين من أتباع مذهب كذا ...

الفصل الأول

قيمة القرآن لدى المسلمين

القرآن يشتمل على مناهج الحياة :

الدين الاسلامي الذي يشتمل على أتم المناهج للحياة الانسانية ويحتوي على ما يسوق البشر الى السعادة والرفاه ، هذا الدين عرفت أسسه وتشريعاته من طريق القرآن الكريم ، وهو ينبوعه الاول ومعينه الذي يترشح منه .

والقوانين الاسلامية التي تتضمن سلسلة من المعارف الاعتقادية والأصول الأخلاقية والعملية ، نجد منابعها الأصيلة في آيات القرآن العظيم .

قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »[1] .

وقال تعالى: «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء»[2].

وواضح كل الوضوح أن في القرآن كثيراً من الآيات التي نجد

---

(١) سورة الاسراء : ٩ .

(٢) سورة النحل : ٨٩ .

فيها أصول العقائد الدينية والفضائل الأخلاقية وكليات القوانين العملية ، ولا نرانا بحاجة الى سرد كل هـاتيك الآيات في هذا المجال الضيق .

* * *

وبشيء من التفصيل نقول :

لو دققنا النظر في النقاط التالية ندرك كيف اشتمل القرآن الكريم على المناهج الحياتية التي لا بد من توفرها للانسان :

١ — لا يهدف الانسان من حياته الا السعادة والهناء والوصول الى الأماني التي يتمناها . السعادة والهناء لون خاص من ألوان الحياة يتمناها الانسان ليدرك في ظلها الحرية والرفاه وسعة العيش وما اشبه هذا .

والذي نراه في حالات شاذة أن بعض الناس يدير وجهه عن السعادة والرغد ، كأن ينتحر أو يحرم كثيراً من وسائل الرفاه على نفسه . هكذا انسان مبتلى بعقد نفسية يرى من جرائها ان السعادة فيما يقوم به من الأعمال المضادة للسعادة . فمثلاً يصيب البعض أنواع من متاعب الحياة ولا يتمكن من حملها فيلجأ الى الانتحار لأنه يرى الراحة في الموت، أو يتزهد بعضهم ويجرب أنواع الرياضات البدنية ويحرم على نفسه اللذائذ المادية لأنه يرى السعادة في هكذا حياة نكدة .

اذاً الجهد الذي يبذله الانسان ليس الا لدرك تلك السعادة

المنشودة . نعم تختلف الطرق المتبعة للوصول الى الهـــدف المذكور ، فبعضهم يسلك السبيل المعقول وبعضهم يخطىء فيقع في متاهات الضلال .

٢ – الأعمــــال التي تصدر من الانسان لا تكون إلا في إطار خاص من الانظمة والقوانين . هذا بديهي لا يقبل الانـكار ، ولو خفي في بعض الحالات ليس الا لشدة وضوحه.

ذلك لأن الانسان من جهة لا يعمل شيئاً الا بعد ان يريده فعمله صادر عن ارادة نفسية يعلمها هو ولا تخفي عليه. ومن جهة اخرى انما يعمل ما يعمل لأجل نفسه، يعني انه يحس بضرورات حياتية لا بد من توفرهـا ، فيعمل ليوفر تلك الضرورات على نفسه . فبين أعماله ارتباط مستقيم يربط بعضها ببعض .

الأكل والشرب والنوم واليقظة والجلوس والقيام والذهاب والمجيء ، هذه الاعمال وغيرها من الأعمـال الكثيرة التي يقوم بها الانسان، هي ضرورية له في بعض الحـالات وغير ضرورية في حالات أخرى ، وهي تنفع في بعض المجـــالات وتضر في مجالات أخرى . فكل مـا يعمله الانسان نابع من قانون يدرك كلياته في نفسه ويطبق جزئياته على أعماله وأفعاله .

كل شخص في أعماله الفردية يشبه حكومة كاملة لها قوانينها وسننها وآدابها ، والقوى الفعالة في تلك الحكومة عليهـا أن تطبق أعمالها اولاً مع تلك القوانين ثم تعمل.

والأعمـال الاجتماعيـة في مجتمع ما تشبه الأعمال الفردية

فتحكم فيها مجموعة من القوانين والآداب التي تواضع عليها اكثر أفراد ذلك المجتمع ، والا فسوف يسود الفوضى في أقرب وقت وينفصم عراهم .

نعم اذا كان المجتمع مجتمعاً مذهبياً تحكم فيه أحكام المذهب وقوانينه ، ولو كان غير مذهبى ولكن له نصيب من المدنية فيصبغ أفعاله بصبغة القانون المدني ، أما اذا كان المجتمع متوحشاً فتحكم فيه الآداب والقوانين الفردية المستبدة أو القوانين التي وجدت من جراء احتكاك مختلف العقائد والآداب بصورة فوضى غير منظمة .

فاذاً لا بد للانسان من هدف خاص في أفعاله الفردية والاجتماعية ، وللوصول الى ذلك الهدف لا محيص من تطبيق أعماله بقوانين وآداب خاصة موضوعة من قبل دين أو اجتماع أو غيرهما .

والقرآن الكريم نفسه يؤيدهذه النظرية حيث يقول : «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » (١) .

والدين في عرف القرآن يطلق على الآداب والقوانين بصورة عامة ، فان المؤمنين والكافرين — وحتى المنكرين لله تعالى — لا يخلون من دين ما ، لأن كل انسان يتبع قوانين خاصة في أعماله ، كانت تلك القوانين مستندة الى نبي ووحي أو موضوعة من قبل شخص أو جماعة ما ، يقول تعالى في أعداء

---

(١) سورة البقرة : ١٤٨ .

الدين : « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً »[1] .

٣ – ان أحسن وأثبت الآداب التي يليق بالانسان أن يتبعها هي الآداب التي توحيهـــا اليه الفطرة السليمة ، لا النابعة من العواطف والاندفاعات الفردية أو الاجتماعية .

ولو تأملنا في كل جزء من أجزاء الكون لنرى ان له هدفاً خاصاً وجهته من أول يوم خلقته تحقيق ذلك الهدف من أقرب الطرق وأحسنها ، وهو يشتمل على ما لا بد منه لتحقيق هدفه من الوسائل والآلات . هذا شأن كل مخلوق في الكون ذي روح أم غير ذي روح .

مثلاً حبة الحنطة من أول يوم توضع في بطن الأرض وتخرج منها الخضرة تسير في طريق التكامل لتكون لها سنابل تحمل حبات كثيرة من الحنطة ، وهي مجهزة بوسائل خاصة تستفيد بواسطتهـــا من العناصر التي لا بد من توفرها من أجزاء الأرض والهواء بنسب معلومة ، وتعلو يوماً فيوماً وتتحول من شكل الى آخر حتى يكون لها سنابل في كل سنبلة حبات ، وحينئذ تكون قد وصلت الى هدفها المنشود وكمالها الذي كانت تهدف اليه .

---

(١) سورة الأعراف : ٤٥ . وجه دلالة الآية الكريم على ما قلناه أن جملة « سبيل الله » تطلق في عرف القرآن على الدين ، والآية تدل على أن الكافرين – وحتى الذين ينكرون الله تعالى – يحرفون دين الله (دين الفطرة) فالآداب التي يتبعونها في حياتهم هي دينهم .

وشجرة الجوز لو نحقق فيها النظر لنرى انها تسير أيضاً نحو هدف معين من أول يوم خلقتها ، وللوصول الى ذلك الهدف جهزت بآلات خاصة تناسب سيرها التكاملي وقوتها وضخامتها وهي في مسيرتها لا تتبع الطريقة التي اتبعتها الحنطة كما أن الحنطة لم تسر سير الجوزة .

ان جميع ما نشاهده في الكون يتبع هذه القاعدة المطردة وليس لنا دليل ثابت على ان الانسان شاذ عنها في مسيرته الطبيعية الى هدفه الذي جهز بالآلات اللازمة للوصول اليه بل الأجهزة الموجودة فيه أحسن دليل على أنه مثل بقية ما في الكون له هدف خاص يضمن سعادته وتوفرت فيه الوسائل للوصول اليه .

وعليه فخلقة الانسان وخلقة الكون الذي ليس الانسان الا جزءاً منه ، تسوقه الى السعادة الحقيقية ، وهي توحي اليه أهم وأحسن واثبت القوانين التي تضمن سعادته .

يقول تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »(١) .

ويقول : « الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى »(٢) .

ويقول : «ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها »(٣) .

---

(١) سورة طه : ٥٠ .

(٢) سورة الأعلى : ٣ — ٤ .

(٣) سورة الشمس : ٧ — ١٠ .

ويقول : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[١] .

ويقول : « إن الدين عند الله الاسلام »[٢]

ويقول : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه »[٣]

ومحصل هذه الآيات وآيات أخرى بهذا المضمون لم نذكرها أن الله تعالى يسوق كل واحد من مخلوقاته – بما فيهم الانسان – الى الهدف والسعادة الاسمى التي خلقهم لأجلها ، والطريقة الصحيحة للانسان هي التي تدعوه اليه خلقته الخاصة ، فيجب أن يتقيد في أعماله بقوانين فردية واجتماعية تابعة من فطرته السليمة ، ولا يتبع مكتوف اليد هواه وعواطفه وما تمليه عليه ميوله وشهواته . ومقتضى الدين الفطري (الطبيعي) أن لا يهمل الانسان الأجهزة المودعة في وجوده ، بل يستعمل كل واحدة منها في حدوده وما وضع له لتتعادل القوى الكامنة في ذاته ولا تغلب قوة على قوة .

وبالتالي يجب أن يحكم على الانسان العقل السليم لا مطاليب النفس والعواطف المخالفة للعقل ، كما يجب أن يحكم على المجتمع الحق وما هو الصالح له حقيقة لا انسان قوي مستبد يتبع هواه وشهواته ولا الأكثرية التي تخالف الحق والمصالح العامة .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .
(٢) سورة آل عمران : ١٩ .
(٣) سورة آل عمران : ٨٥ .

نستخلص من البحث الذي مضى نتيجة أخرى ، هي : ان تشريع الأحكام ووضع القوانين راجع الى الله تعالى ، وليس لأحد أن يشرّع القوانين ويصنع المقررات غيره ، لأننا عرفنا من البحث السابق أن الآداب والقوانين التي تفيد الانسان في حياته العملية هي المستوحاة من خلقته الطبيعية ، ونعني بها القوانين والآداب التي تدعو اليها العلل والعوامل الداخلية والخارجية الكامنة في خلقته ، وهذا يعني أن الله تعالى يريدها ومعنى أنه يريدها أنه أودع في الانسان العلل والعوامل التي تقتضي تلك القوانين والآداب .

نعم الارادة تنقسم الى قسمين : قسم منها تجبر على ايجاد الشيء كالحوادث الطبيعية التي تقع في كل يوم ، وهي المسماة بـ« الارادة التكوينية »، والقسم الآخر يقتضي ايجاد الشيء من طريق الاختيار لا الجبر كالأكل والشرب وأمثالهما ، وهي المسماة بـ « الارادة التشريعية » .

يقول تعالى : « إن الحكم الا لله » [(١)] .

* * *

وبعد وضوح هذه المقدمات يجب أن يعلم : ان القرآن الكريم مع رعايته للمقدمات الثلاث المذكورة – وهي أن للانسان هدفاً يجب أن يصل اليه طول حياته بمساعيه وأعماله ولا يمكن الوصول الى هدفه الا باتباع قوانين وآداب ، ولا بد

---

(١) سورة يوسف : ٤٠ و ٦٧ .

من درس تلك القوانين والآداب من كتـاب الفطرة والخليقة ونعني به التعليم الالهي – مع رعاية القرآن الكريم هذه المقدمات وضع مناهج الحياة للانسان كما يلي :

جعل أساس المنهج على معرفة الله تعالى وجعل الاعتقـــاد بوحدانيته أول الأصول الدينيـة ، ومن طريق معرفة الله دله على المعاد والاعتقاد بيوم القيامة الذي يجازى فيه المحسن باحسانه والمسيء باساءته وجعله أصلاً ثانياً ، ثم من طريق الاعتقاد بالمعاد دله على معرفة النبي لأن الجزاء على الأعمـال لا يمكن الا بعد معرفة الطـاعة والمعصية والحسن والسيء ولا تتأتى هـــذه المعرفة الا من طريق الوحي والنبوة – كما سنفصله فيما بعد – وجعل هذا أصلاً ثالثاً .

واعتبر القرآن الكريم هذه الأصول الثلاثة – الاعتقـــاد بالتوحيد والنبوة والمعاد – أصول الدين الاسلامي .

وبعد هذا بيّن أصول الأخـلاق المرضية والصفات الحسنة التي تناسب الأصول الثلاثة والتي لا بد أن يتحلى بها كل انسان مؤمن، ثم شرّع له القوانين العملية التي تضمن سعادته الحقيقية وتنمي فيه الأخلاق الطيبة والعوامل التي توصله الى العقـــائد الحقة والأصول الأولية .

وهذا لأننا لا يمكن أن نصدق أن انساناً يتصف بعفة النفس وهو منهمك في المسائل الجنسية المحرمة ويسرق ويخون الأمانة ويختلس في معاملاته ، كما أننا لا يمكن أن نعترف بسخـــاء

شخص يفرط في حب المـــال وجمعه وادخـاره ومنع حقوق الآخرين، وكذلك لا نعتبر رجلاً مؤمناً بالله تعالى واليوم الآخر وهو لا يعبد الله ولا يذكره في أيامه ولياليه . فالأخلاق المرضية لا تبقى حية في الانسان الا اذا قورنت بأعمال تناسبها .

ومثل هذه النسبة التي ذكرناها بين الأعمال والأخلاق توجد أيضاً بين الأخلاق والعقائد،فان انساناً مغموراً بالكبر والغرور وحب الذات لا يمكن ان يعتقـد بالله تعالى ويخضع لعظمته ، وهكـــذا من لم يعلم طول حياته معنى الانصاف والمروءة والعطف على الضعفاء لا يدخل في قلبه الايمـــان بيوم القيامة والحساب والجزاء .

يقول تعالى بصدد ربط العقائـد الحقة بالأخلاق المرضية : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »[1] .

ويقول تعالى في ربط الاعتقاد بالعمل : « ثم كان عاقبـة الذين اساؤا السوای أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون»[2].

ونتيجة القول: إن القرآن الكريم يحتوي على منابع أصول الاسلام الثلاثة كما يلي :

١ ـ أصول العقائد ، وهي تنقسم الى أصول الدين الثلاثة التوحيد والنبوة والمعاد ، وعقائد متفرعة عنهـا كاللوح والقلم والقضاء والقدر والملائكة والعرش والكرسي وخلق السماوات والارَضين وأشباهها .

---

(١) سورة الفاطر : ١٠ .

(٢) سورة الروم : ١٠ .

٢ – الأخلاق المرضية .

٣ – الأحكام الشرعية والقوانين العمليـــة التي بين القرآن أسسها وأوكل بيان تفاصيلهـــا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وجعل النبي بيان أهل بيته عليهم السلام بمنزلة بيـانه كمـــا يعرف ذلك من حديث الثقلين المتواتر نقله عن السنة والشيعة (١) .

القرآن سند النبوة :

يصرح القرآن الكريم في عدة مواضع أن كلام الله المجيد يعني أنه صادر من الله تعالى بهذه الألفاظ التي نقرأهـا ، وقد تلقاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الألفـــاظ بواسطة الوحي .

وللاثبات بأنه من كلام الله تعالى وليس ممـا أبدعه البشر تحدى القرآن في آيات منه كافة الناس في أن يأتوا ولو بآية من مثله ، وهذا يدل على أنه معجز لا يمكن أن يأتي بمثله أي واحد من الناس .

قال تعالى : « أم يقولون تقوّله بـل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » (٢) .

---

(١) راجع كتاب « عبقات الأنوار » مجلد حديث الثقلين ، فقد ذكر فيه مئات أسانيد وطرق العامة والخاصه الى الحديث المذكور .

(٢) سورة طور : ٣٣ ، ٣٤ .

وقال : « قل لئن اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » [1] .

وقال : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » [2] .

وقال : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله » [3] .
وقال : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » [4] .

وتحدياً لهم بخلو القرآن من الاختلاف قال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » [5] .

القرآن الكريم الذي يثبت بهذه التحديات أنه كلام الله تعالى يصرح في كثير من آياته بأن محمداً رسول مرسل ونبي من الله، وبهذا يكون القرآن سنداً للنبوة .

ومن هنا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الآيات بأن

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .
(٢) سورة هود : ١٣ .
(٣) سورة يونس : ٣٨ .
(٤) سورة البقرة : ٢٣ .
(٥) سورة النساء : ٨٢ .

يستند لاثبات نبوته بشهادة الله عز شأنه له بذلك ، ويعني بها تصريح القرآن بنبوته ، فيقول : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم »[1] .

وفي موضع آخر يزيد على شهادة الله شهادة الملائكة بذلك فيقول : « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً »[2] .

---

(١) سورة الرعد : ٤٣ .

(٢) سورة النساء : ١٦٦ .

الفصل الثاني

كيف نعلم القرآن الكريم

القرآن كتاب عالمي :

لا يختص القرآن الكريم في موضوعاته بأمة من الأمم كالأمة العربية مثلاً، كما لا يختص بطائفة من الطوائف كالمسلمين بل يوجه خطابه الى غير المسلمين كما يتكلم مع المسلمين. ودليلنا على هذا الخطابات [1] الكثيرة الموجهة في القرآن الى الكفار والمشركين وأهل الكتاب واليهود وبني اسرائيل والنصارى.. احتج مع كل طائفة من هذه الطوائف ودعاهم الى معارفه الحقة.

القرآن احتج مع كل هذه الطوائف ودعاهم الى الدين من دون أن يقيد الخطاب بالعرب، فقال لعباد الأصنام : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأخوانكم في الدين »[2] .

---

(١) وردت هذه الخطابات والاحتجاجات في آيات كثيرة جداً لا نرانا بحاجة إلى سردها هنا .

(٢) سورة التوبة : ١١ .

وقال لأهل الكتاب : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »[١] .

كما نرى لم يقل القرآن « فان تاب مشركو العرب » أو « يا أهل الكتاب من العرب » وأمثال هذه الخطابات .

نعم في بدء الاسلام حيث لم تنتشر بعد الدعوة الاسلامية ولم تخرج من إطار الجزيرة العربية كانت الخطابات موجهة إلى العرب ، أما من السنة السادسة من الهجرة حيث انتشرت الدعوة وتجاوزت الجزيرة فلم يبق مجال لتوجيه الخطاب إلى أمة خاصة .

وبالاضافة الى الآيات السابقة هناك آيات أخرى تدل على عموم الدعوة ، كقوله تعالى : « وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »[٢] .

وقوله : « وما هو الا ذكر للعالمين »[٣] .

وقوله : « إن هو الا ذكر للعالمين »[٤] .

وقوله : « إنها لأحدى الكبر * نذيراً للبشر » .[٥]

ومن الوجهة التاريخية نرى أن كثيراً من عبدة الأصنام

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) سورة الأنعام : ١٩ .

(٣) سورة القلم : ٥٢ .

(٤) سورة ص : ٨٧ .

(٥) سورة المدثر : ٣٥ ، ٣٦ .

واليهود والنصارى أسلموا، كما أسلم أيضاً جماعة من قوميات غير عربية كسلمان الفـــارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي وأحزابهم .

القرآن كتاب كامل :

القرآن الكريم يحتوي على الغـــاية الأسمى التي يهدف اليها الانسانية ويبينها بأتم الوجوه ، لأن الوصول الى الغاية الأسمى لا يمكن الا بالنظرات الواقعية للكون والعمل بالأصول الأخلاقية والقوانين العملية ، وهذا ما يتولى شرحه القرآن بصورة كاملة حيث يقول : « يهدي الى الحق والى طريق مستقيم » [1] .

ويقول في موضع آخر بعــد ذكر التوراة والانجيـــل : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً » [2] .

وبياناً لاشتماله على حقيقة شرائع الأنبيـاء يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحـــاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » [3] .

وفي احتوائه على سائر الأشياء يقول : « ونزّلنـــا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » [4] .

---

(١) سورة الأحقاف : ٣٠ .
(٢) سورة المائدة : ٤٨ .
(٣) سورة الشورى : ١٣ .
(٤) سورة النمل : ٨٩ .

ومختصر مـــا في الآيات السابقة : ان القرآن يحتوي على الحقائق المبينة في الكتب السماوية وزيادة ، وفيه كل ما يحتاج اليه البشر في سيره التكاملي نحو السعادة من أسس العقـــائد والأصول العملية .

القرآن كتاب دائم :

الفصل السابق يتكفل باثبات أن القرآن الكريم كتـــاب دائم ، وذلك لأن كلاماً ما لو صح وتم بصورة مطلقة لا يحدّ بوقت من الأوقات أو زمان من الأزمنة . والقرآن ينص على تمـــامية كلامه وكماله ، فيقول : إنه لقول فصل * وما هو بالهزل » [1] .

وهكذا تكـــون المعارف الحقة ، حقيقة خالصة وواقع محض ، والأصول الأخلاقية والقوانين العملية التي بينها القرآن هي نتيجة تلك الحقائق الثابتة ، ولا يتطرق اليها البطلان ولا تنسخ بمضي الأعوام والقرون ، يقول تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » [2] .

ويقول : « فماذا بعد الحق الا الضلال » [3] .

---

(١) سورة الطارق : ١٤ – ١٥ .

(٢) سورة الاسراء : ١٠٥ .

(٣) سورة يونس : ٣٢ .

ويقول : « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه البـــاطل من بين يديه ولا من خلفه »[1] .

ولا يخفى أن أبحاثاً كثيرة كتبت حول أحكام القرآن وأنها دائمة لا تختص بوقت من الأوقات، الا أنها خارجة عن موضوع بحثنا الذي نحاول فيه معرفة مكانة القرآن عند المسلمين كما يدل عليها القرآن نفسه .

القرآن مستقل في دلالته :

القرآن الكريم كلام كسائر ما يتكلم به الناس ، ويدل دلالة واضحة على معـــانيه المقصودة وليس فيه خفاء على المستمعين .

ولم نجد دليلاً على أنه يقصد من كلماته غير المعاني التي ندركها من ألفاظه وجمله .

أما وضوحه في دلالته على معانيه فلأن أي انسان عارف باللغة العربية بإمكانه أن يدرك معنى الآيات الكريمة كما يدرك معنى كل قول عربي .

وبالاضافة الى هذا نجد في كثير من الآيات يخاطب طائفـــة خاصة كبني اسرائيل والمؤمنين والكفار، وفي آيات منه يخاطب عامة الناس[2] ويحاجهم ويتحداهم ليأتوا بمثله لو كانوا في شك

---

(١) سورة السجدة : ٤٢ .

(٢) أمثال « يا أيها الذين كفروا » و « يا أهـــل الكتاب » و « يا بني إسرائيل » و « يا أيها الناس » .

أنه من عند الله تعالى. وبديهي أنه لا يصح التكلم مع النـاس بما لا مفهوم واضح له ، كما لا يصح التحدي بما لا يفهم معناه .

وزيادة على هذا يقول تعالى: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (١)

ويقول : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٢) .

تدل الآية على ضرورة التدبر في القرآن الذي هو بمعنى التفهم والتدبر يرفع ما يترائى بالنظرة الأولى من الاختلاف بين الآيات ومن البديهي الواضح أن الآيات لو لم تكن لها دلالة ظاهرة على معانيها لما كان معنى للتدبر والتأمل ، كما لم يبق مجـال لحل الاختلافات الصورية بين الآيات بواسطة التدبر والتأمل .

* * *

وأما ما ذكرنا من انه لا دليل خـارجي على نفي حجية ظواهر القرآن ، فلأننا لم نجد هكذا دليل لذلك الا ما ادعاه بعض من أننا في فهم مرادات القرآن يجب أن نرجع الى ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو ما أثر عنه وعن أهل بيته المعصومين عليهم السلام .

ولكن هذا ادعاء لا يمكن قبوله، لأن حجية قول الرسول والأئمة عليهم السـلام يجب أن تفهم من القرآن الكريم، فكيف

---

(١) سورة محمد : ٢٤ .

(٢) سورة النساء : ٨٢ .

يتصور نوقف حجية ظواهره على أقوالهم عليهم السلام . بل نزيد على هذا ونقول : إن إثبات أصل النبوة يجب أن نتشبث فيه بذيل القرآن الذي هو سند النبوة كما ذكرنا سابقاً .

وهذا الذي ذكرناه لا ينـافي كون الرسول والأئمة عليهم السلام عليهم بيان جزئيات القوانين وتفاصيل أحكام الشريعة التي لم نجدهـــا في ظواهر القرآن ، وأن يكونوا مرشدين الى معارف الكتاب الكريم كما يظهر من الآيات التالية :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم »[1] .

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[2] .

« وما أرسلنا من رسول الاليطاع باذن الله »[3] .

« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة »[4] .

يفهم من هذه الآيات أن النبي صلى الله علية وآله هو الذي يبين جزئيات وتفاصيل الشريعة و هو المعلم الالهي للقرآن المجيد وحسب مـاجاء في حديث الثقلين الأئمة عليهم السلام هم خلفاء الرسول في ذلك وهذا لا ينـافي أن يدرك مراد القرآن من ظواهر آياته بعض من تتلمذ على المعلمين الحقيقيين وكان له ذوق في فهمه .

---

(١) سورة النحل : ٤٤ .
(٢) سورة الحشر : ٧ .
(٣) سورة النساء : ٦٤ .
(٤) سورة الجمعة : ٢ .

للقرآن ظاهر وباطن :

يقول الله تعالى في كلامـــه المجيد : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً »[1] .

ظاهر هذه الآية الكريمة أنها تنهى عن عبادة الأصنام كما جاء في قوله تعالى «فاجتنبوا الرجس من الأوثان»[2]، ولكن بعد التأمل والتحليل يظهر أن العلة في المنع من عبادة الأصنام أنها خضوع لغير الله تعالى . وهذا لا يختص بعبادة الاصنـام بل عبر عز شأنه عن اطاعة الشيطان أيضاً بالعـــبادة حيث قال : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشيطان »[3]

ومن جهة أخرى يتبين أنه لا فرق في الطاعة الممقوتة بين أن تكون للغير او للانسان نفسه ، فان اطاعة شهوات النفس أيضاً عبادة من دون الله تعالى كما يشير اليه في قوله :«أفرأيت من اتخذ الهه هواه »[4] .

وبتحليل أدق نرى أنه لا بد من عدم التوجه الى غير الله جل وعلا ، لأن التوجه الى غيره معناه الاعتراف باستقلاله والخضوع له ، وهذا هو العبادة والطاعة بعينهـــا ، يقول

(١) سورة النساء : ٣٦ .
(٢) سورة الحج : ٣٠ .
(٣) سورة يس : ٦٠ .
(٤) سورة الجاثية : ٢٣ .

تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس » الى قوله « أولئك هم الغافلون » [1] .

عند التدبر في هذه الآيات الكريمة نرى بالنظرة البدائية في قوله «ولا تشركوا به شيئاً» أنه تعالى ينهى عن عبادة الأصنام وعندما نتوسع بعض التوسع نرى النهي عن عبادة غير الله من دون اذنه ، ولو توسعنا اكثر من هذا لنرى النهي عن عبادة الانسان نفسه باتباع شهواتها ، أما لو ذهبنا الى توسع اكثر فنرى النهي عن الغفلة عن الله والتوجه الى غيره .

ان هذا التدرج – ونعني به ظهور معنى بدائي من الآية ثم ظهور معنى أوسع وهكذا – جار في كل من الآيات الكريمة بلا استثناء .

وبالتأمل في هذا الموضوع يظهر معنى ماروي عن النبي صلى الله عليه وآله في كتب الحديث والتفسير من قوله : «إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً الى سبعة أبطن » [2] .

وعلى هذا للقرآن ظاهر وباطن أو ظهر وبطن،وكلا المعنيين يرادان من الآيات الكريمة ، الا أنهما واقعان في الطول لا في العرض ، فان ارادة الظاهر لا تنفي ارادة الباطن وارادة الباطن لا تزاحم ارادة الظاهر .

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٢) الصافي المقدمة الثامنة ، وسفينة البحار « بطن » .

لماذا تكلم القرآن بأسلوب الظاهر والباطن :

١ـ الانسان في حياته البدائية القصيرة الدنيوية بشبه الحباب[1] الذي يعلو الماء، اذ ركز أوتاد خباء وجوده في مياه بحر المادية وكل ما يقوم به من المساعي والجهود أعطيت أزمتها بيد ذلك البحر المادي الهائج .

اشتغلت حواسه الظاهرية والباطنية بالمادة ، وأفكاره انما تتبع معلوماته الحسية . فإن الأكل والشرب والجلوس والقيام والتكلم والاستماع والذهاب والاياب والحركة والسكون وكل ما يقوم به الانسان من الأعمال والأفعال وضعت أسسها على المادة ولا يفكر الا فيها .

وما نراه في بعض الأحيان من الآثار المعنوية ـ كالحب والعداء وعلو الهمة ورفعة المقام وأمثالها ـ انما يدركها بعض الأفهام لأنها تجسم مصاديق مادية ، فان الانسان يقيس حلاوة الغلب بحلاوة السكر وجاذبية الصداقة بجاذبية المغناطيس وبعلو الهمة بعلو مكان ما أو علو نجوم السماء وعظم المقام ورفعته بعظم الجبل وما أشبه هذه الأشياء .

ومع هذا تختلف الأفهام في ادراك المعنويات التي هي أوسع نطاقاً من الماديات ، فان بعض الأفهام في غاية الانحطاط في درك المعنويات ، وبعضها تدرك ادراكاً قليلاً ، وهكذا تتدرج

---

(١) الحباب بفتح الحاء : الفقاقيع التي تعلو الماء .

الى أن تصل بعض الأفهام بسهولة الى درك أوسع المعنويات غير المادية .

وعلى كل حال فكلما تتقدم الأفهام نحو ادراك المعنويات تقلّ تعلقها بالمظاهر المادية المغرية ، وكلما قل تعلقها بالمادة زادت في ادراكها، ومعنى هذا أن كل انسان بطبيعته الانسـانية فيه الاستعداد الذاتي لهذا الادراك، ولو لم يشبه بالشوائب العرضية لأمكن تربيته وتقدمه .

٢ - نستنتج مما سبق أنه لا يمكن حمل ما يدركه الذي هو في المرتبة العليـا من الفهم والعقل على الذي هو في المرتبة السفلى ولو حاولنـا هذا الحمل لكانت نتيجته عكسية ، وخاصة في المعنويات التي هي أهم من المحسوسات المادية ، فانها لو ألقيت كما هي على العامة لأعطت نتيجة تناقض النتيجة الصحيحة المتوخاة.

ولا بأس أن نمثل ها هنا بالمذهب الوثني . فلو تأمل الباحث في قسم « اوبانيشاد » من كتاب « ويـدا » الكتـاب البوذي المقدس، لو تأمل الباحث فيه وقارن بين أقواله مقارنة صحيحة ليرى أنه يهدف الى التوحيد الخـالص . ولكنه مع الأسف يستعرض هدف بلا ستار وعلى مستوى أفكار العامة ، فكانت النتيجة أن اتجه ضعفاء العقول من الهنود الى عبادة أوثان شتى.

إذاً لا يمكن رفع الستـار بصورة مكشوفـة عن الأسرار الغيبية وما يتعلق بما وراء الطبيعة والمادة للماديين ومن لم يذعن بالحقائق .

٣ - بالرغم مما نجده في الأديان من حرمان العامة من كثير من المزايا الدينية، كحرمان المرأة في البرهمية واليهودية والمسيحية وحرمان غير رجال الدين من ثقافة الكتاب المقدس في الوثنية والمسيحية .. بالرغم من كل ذلك فان أبواب الدين الاسلامي لم تغلق في وجه أحد ، فان المزايا الدينية فيه للجميع وليست ملكاً لفئة خاصة ، فلافرق بين العامة والخاصة والرجل والمرأة والأبيض والأسود ، كلهم مساوون في نظر الاسلام وليس لأحد ميزة على أحد .

قال تعالى : « إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » [1] .

وقال عز من قائل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » [2] .

* * *

بعد تقديم هذه المقدمات الثلاث نقول : إن القرآن الكريم ينظر في تعاليمه القيمة الى الانسانية بما أنها انسانية ، ونعني أنه يوسع تعاليمه على الانسان باعتباره قابلاً للتربية والسير في مدارج الكمال .

ونظراً الى أن الأفهام والعقول تختلف في ادراك المعنويات

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٥ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

ولا يؤمن الخطر عند القاء المعارف العالية كما أسلفنا .. يستعرض القرآن الكريم تعاليمه بأبسط المستويات التي تناسب العـامة ويتكلم في حدود فهمهم ومداركهم الساذجة .

إن هذه الطريقة الحكيمة نتيجتها أن تبث المعارف العالية بلغة ساذجة يفهمها عـامة الناس ، وتؤدي ظواهر الألفاظ في هذه الطريقة عملية الالقاء بشكل محسوس أو مـا يقرب منه وتبقى الحقــائق المعنوية وراء ستار الظواهر فتتجلى حسب الأفهام ويدرك منها كل شخص بقدر عقله ومداركه .

يقول تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم »[1] .

ويقول ممثلاً للحق والباطل ومقدار الأفهـام : « أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها »[2] .

ويقــول الرسول صلى الله عليه وآله في حديث مشهور : « إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم »[3] .

ونتيجة أخرى لهــذه الطريقة أن ظواهر الآيات تكون كأمثــال بالنسبة الى البواطن، يعني بالنسبة الى المعارف الالهية التي هي أعلى مستوى من أفهام العامة ، فتكون تلك الظواهر كأمثال تقرب المعارف المذكورة الى الأفهام، يقول جل جلاله:

---

(١) سورة الزخرف : ٣/٤ .
(٢) سورة الرعد : ١٧ .
(٣) بحار الأنوار ١/٣٧ .

«ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً »[1] .

ويقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »[2] .

وفي القرآن الكريم كثير من الأمثال، الا أن الآيات المذكورة وما في معناها مطلقة لا تختص بأمثال قرآنية خاصة . فعليه لابد من القول بأن الآيات كلها أمثال بالنسبة الى المعارف العالية التي هي المقصد الأسمى للقرآن .

في القرآن المحكم والمتشابه :

يقول الله تعالى : « كتاب أحكمت آياته »[3] .

ويقول : « الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم »[4] .

ويقول : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم

---

(١) سورة الاسراء : ٨٩ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .
(٣) سورة هود : ١ .
(٤) سورة الزمر : ٢٣ .

تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » [١] .

نرى في الآية الأولى أنها تنص على أن القرآن كله محكم وتريد أنه ثابت لايدخل عليه أي خلل أو بطلان. والآية الثانية تنص على أن القرآن كله متشابه ، وتريد أن آياته على وتيرة واحدة في الجمال والأسلوب وحلاوة اللهجة والاعجاز . أما الآية الثالثة فتقسم القرآن الى قسمين محكم ومتشابه ، وملخص ما نفهم منها هو :

أولاً : المحكم ما كان ثابتاً في دلالته بحيث لايشتبه مراده بمراد آخر ، والمتشابه ما كان غير ذلك .

وثانياً: على كل مؤمن راسخ الايمان أن يؤمن بالآيات المحكمة ويعمل بها، وكذلك يؤمن بالآيات المتشابهة ولكن لا يعمل بها. والذين يتبعون الآيات المتشابهة ويعملون بما يوحيه عليهم التأويل فانهم منحرفون عن الحقائق ويبتغون الفتنة واغواء الناس .

معنى المحكم والمتشابه عند المفسرين والعلماء :

اختلف علماء الاسلام في معنى المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة ربما تبلغ الأقوال في ذلك الى عشرين قولاً .

والذي جرى عليه عملهم من العصر الاسلامي الأول حتى العصر الحاضر وعليه الاعتماد هو:

---

(١) سورة آل عمران : ٧ .

١- المحكم هو الآيات التي معناها المقصود واضح لا يشتبه بالمعنى غير المقصود، فيجب الايمان بمثل هذه الآيات والعمل بها.

٢ - المتشابه هو الآيات التي لا تقصد ظواهرها، ومعناها الحقيقي الذي يعبر عنه بـ « التأويل » لا يعلمه الا الله تعالى فيجب الايمان بمثل هذه الآيات ولكن لا يعمل بها.

هذا قول مشهور عند اخواننا علماء السنة وهو المشهور أيضاً عند الشيعة، إلا أنهم يعتقدون بأن النبي والأئمة عليهم السلام يعلمون تأويل الآيات المتشابهة، وعامة المؤمنين حيث لا طريق لهم الى معرفة تأويلها فيرجعون عليها الى الله والرسول والأئمة عليهم الصلاة والسلام.

وهذا القول بالرغم من أن عليه عمل أكثر المفسرين لا يوافق الآية الكريمة « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » الخ، كما أنه لا يطابق ما تدل عليه سائر الآيات لأنه:

أولاً: اننا لا نعرف في القرآن آيات لا نجد طريقاً الى معرفة مداليلها ومعانيها المقصودة. هذا بالاضافة الى أن القرآن وصف نفسه بأوصاف كالنور والهادي والبيان، وهذه الأوصاف لا تتفق مع عدم معرفة المداليل والمعاني.

ومن جهة أخرى تقول الآية « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »[1]، فكيف

---

(١) سورة النساء: ٨٢.

يصح أن يكون التدبر في القرآن رافعاً لكل اختلاف مع أن فيه آيات متشابهة لا يمكن التوصل الى معرفة معناها كما عليه قول المشهور الذي نقلناه .

ويمكن أن يقال : إن المقصود من الآيات المتشابهة هي الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور كـ« الم، الر، حم» وأشباهها ، حيث لا يمكن معرفة معانيها الحقيقية .

ولكن لا بد من الالتفات الى أن في الآية الكريمة وضعت الآيات المتشابهة مقابلاً للآيات المحكمة. ولازم هذه التسمية أن المتشابه له مدلول من قبيل المدلول اللفظي إلا أنه يشتبه فيه مع المدلول الحقيقي ، والحروف المقطعة في أوائل السور ليس لها هكذا مدلول .

وبالاضافة الى هذا يدل ظاهر الآية على أن جماعة من أهل الزيغ ومبتغي الفتنة يسعون في الاضلال بواسطة الآيات المتشابهة ، ولم يسمع أن شخصاً في المسلمين أضل الناس بالحروف المقطعة المذكورة ، بل الذين يضلون الناس انما يضلون بتأويل كلها لا بهذه الحروف خاصة .

وقال بعض : ان الآية تشير الى قصة ملخصها : ان اليهود حاولوا معرفة المدة التي يعيش فيها الاسلام بواسطة الحروف المقطعة في أوائل السور ، ولكن قرأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الفواتح واحدة بعد واحدة وأبطل بهذا مازعموه[1].

---

(١) أنظر : تفسير العياشي ٢٦/١ ، وتفسير القمي أول سورة البقرة ونور الثقلين ٢٢/١ .

وهذا الكلام غير صحيح أيضاً ، لأن القصة لو صحت تدل على أن اليهود كان لهم محاولة أجابهم النبي عليها في نفس المجلس ، وهي ليست من الأهمية بحيث تستدعي ذكر الآية « المتشابه » والزجر عن اتباعه . هذا مع العلم أن قول اليهود لم يكن فيه فتنة ، لأن الدين لو كان حقاً لا يضره تحديد الزمن – ونعني به قبوله النسخ – كما نراه في الأديان الحقة التي كانت قبل الاسلام .

ثانياً : لازم هذا القول أن تكون كلمة « التأويل » في الآية بمعنى المدلول خلاف الظاهر ، ويختص هذا المعنى بالآية المتشابهة . وكلا الموضوعين ليسا بصحيح ، فاننا سنذكر في البحث الذي وضعناه لمعرفة التأويل والتنزيل بأن « التأويل » في عرف القرآن ليس من قبيل المعنى والمدلول اللغوي ، كما نذكر بأن جميع الآيات المحكمة والمتشابهة لها تأويل ولا يختص ذلك بالآيات المتشابهة .

ثالثاً : وصفت الآية الكريمة جملة « آيات محكمات » بـ «هن أم الكتاب » ، ومعنى هذا أن الآية المحكمة تشتمل على أمهات ما في الكتاب من الموضوعات وبقية الآيات متفرعة عنها. ولازم هذا أن الآيات المتشابهة ترجع الى الآيات المحكمة في مداليلها والمراد منها ، ونعني بذلك ارجاع المتشابهات الى المحكمات لمعرفة معناها الحقيقي .

وعليه ليس في القرآن آية لا نتمكن من معرفة معناها

والآية إما محكمة بلا واسطة كالمحكمات نفسها ، أو محكمة مع الواسطة كالمتشابهات . وأما الحروف المقطعة في فواتح السور فليس لها مدلول لفظي لغوي،فهي ليست من المحكم والمتشابه .

ويمكن معرفة ما قلنا من عموم قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وقوله « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

أسلوب أئمة أهل البيت في المحكم والمتشابه :

مانفهمه من ملخص ما أثر عن أئمة اهل البيت عليهم السلام هو نفي وجود آية متشابهة لا يمكن معرفة مدلولها الحقيقي ، بل الآيات التي لم تستقل في مداليلها الحقيقية يمكن معرفة تلك المداليل بواسطة آيات أخرى ، وهذا معنى ارجاع المحكم الى المتشابه . فان ظاهر قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » [1] وقوله « وجاء ربك » [2] يدل على الجسمية وأن الله تعالى مادة ، ولكن لو أرجعناهما الى قوله « ليس كمثله شيء » [3] علمنا أن الاستواء والمجيء ليسا بمعنى الاستقرار في مكان أو الانتقال من مكان الى مكان آخر .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصف القرآن الكريم : « وان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، ولكن

---

(١) سورة طه : ٥ .

(٢) سورة الفجر : ٢٢ .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به »[1] .

وقال علي عليه السلام : « يشهد بعضه على بعض وينطق بعضه ببعض »[2] .

وقال الامام الصادق عليه السلام : « المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله »[3] .

ونقل عن الامام الرضا عليه السلام انه قال : « من رد متشابه القرآن الى محكمه هدي الى صراط مستقيم » ثم قال : « إن في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن فردوا متشابهها الى محكمها ولا تتبعوا متشابهها فتضلوا »[4] .

إن هذه الأحاديث وخاصة الأخير منها صريحة في أن الآيات المتشابهة هي الآيات التي لا تستقل في مدلولها بل لا بد من ردها الى الآيات المحكمة ، ومعنى هذا – كما أسلفنا – أنه ليس في القرآن آية لا يمكن معرفة معناها بطريق من الطرق .

في القرآن التأويل والتنزيل :

« تأويل القرآن » وردت في ثلاث آيات هي :

---

(١) الدر المنثور ٢/٨ .
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٣١ .
(٣) تفسير العياشي ١/١٦٢ .
(٤) عيون الأخبار ١/٢٩٠ .

١ - « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون مـا تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله »[١] .

٢ - « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هـل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق »[٢] .

٣ - « وما كان هذا القرآن أن يفترى » الى قوله تعالى «بل كذبوا بمـا لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »[٣] .

التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع ، ويراد من التأويل الشيء الذي ترجع الآية اليه . والتنزيل يقـــابل التأويل وهو المعنى الواضح للآية الذي لا يحتاج الى ارجـاعه الى شيء آخر .

معنى التأويل عند المفسرين والعلماء :

اختلف المفسرون في معنى التأويل اختلافاً شديداً ، وبعد الفحص في أقوالهم يمكن ارجاعها الى اكثر من عشرة ، الا أن المشهور فيه قولان :

١ - قول القدماء ، ومحصل كلامهم أن التفسير والتأويل

---

(١) سورة آل عمران : ٧ .
(٢) سورة الأعراف : ٥٣ .
(٣) سورة يونس ٣٩ .

بمعنى واحد وهما مترادفان . وعليه فلكل الآيات القرآنية تأويل ، وبمقتضى قوله تعالى « وما يعلم تأويله الا الله » يختص العلم بالآيات المتشابهة بالله عز شأنه .

ومن هنا ذهب جماعة من القدماء الى أن الآيات المتشابهة هي الحروف المقطعة التي في أوائل السور ، لأنه لا تُعرف آية تخفى معناها على الناس الا هذه الحروف . ولكننا في فصول سابقة بحثنا عن هذا بشيء من التفصيل وذكرنا وجه عدم صحته .

وعلى أي حـــال لما نفى القرآن الكريم علم تأويل بعض الآيات عن غير الله تعالى ، وليس لنا آية لا يُعرف تأويلهـا — أي يخفى معناهـا على الكل كما ذكروا — ولم تكن الحروف المقطعة التي في أوائـــل السور هي الآيات المتشابهة .. لهذه الوجوه ترك المتأخرون هذا القول الذي ذهب اليه القدماء .

٢ — قول المتأخرين ، وهو أن «التأويـل» المعنى خلاف الظاهر الذي يقصد من الكـلام . وعليه فليس لكل الآيات تأويل ، وانما يختص ذلك بالآيات المتشابهة التي لا يحيط بعلمها الا الله ، كالآيات الظاهرة في الجسمية والمجيء والاستواء والرضا والسخط والأسف وغيرها من الأوصاف المنسوبة اليه جل جلاله وكذلك الآيات الظاهرة في نسبة الذنب الى الرسل والأنبياء المعصومين عليهم السلام .

بلغ هذا القول من الاشتهار بحيث أصبحت لفظة «التأويل» كالحقيقة الثانية في المعنى خلاف الظاهر ، فان تأويل الآيات

القرآنية في المباحث الكلامية والخصام العقائدي يعني هذا المعنى بالذات ، كما أن حمل الآية على خلاف ظاهر معناهـــا بدليل يسمونه «التأويل» موضوع دائر على الألسن مع أنه لا يخلو من تناقض [١] .

هذا القول مع شهرته العظيمة ليس بصحيح ، ولا ينطبق على الآيات القرآنية ، لأنه :

أولا – الآيتان المنقولتان في الفصل السابق «هل ينظرون الاتأويله» و « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » ظاهرتان أن كل في الآيات لها تأويل ولا يختص ذلك بالآيات المتشابهة كما يبدو من هذا القول .

وثانياً – لازم هــذا القول وجود آيات في القرآن يشتبه الناس في فهم مدلولها الحقيقي ولا يعلمه الا الله تعالى . ومثل هذا الكلام الذي لايدل على مدلوله لا يعد كلاماً بليغاً فكيف بتحديه للبلغاء في بلاغته .

وثالثاً – بناء على هذا القول لا تتم حجية القرآن الكريم ، لأنه حسب احتجاج الآية الكريمة « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ، احدى الدلائل على أن القرآن ليس من كلام البشر عدم وجود اختلاف معنوي ومدلولي بين الآيات – مع بُعد أزمان نزولها وتباين ظروف

---

(١) لأن تأويل الآية مع الاعتراف بأن التأويل لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى عمل مناقض ، ولكن هؤلاء ذكروا ذلك بعنوان أنه احتمال في الآية .

النزول واسبابه – وما يظهر من الاختلاف بين بعض الآيات في بادىء النظر يرتفع بالتفكر والتدبر في الآيات .

ولو فرضنا أن كمية كبيرة من الآيات المسماة بـ «المتشابهات» تختلف مع كمية أخرى تسمى بـ « المحكمات » ونرفع الاختلاف بينها بأن نذهب الى أن ظاهرها غير مراد وما يراد منها معانٍ لا يعلمها إلا الله تعالى .. هكذا رفع الاختلاف لا يدل على أن القرآن ليس من كلام البشر .

وهكذا لو رفعنا الاختلاف بصرف ظاهر كل آية يخالف مضمونها أو يناقض الآيات المحكمة، فأولناها – حسب اصطلاح المتأخرين – بأن حملناها على معنى خلاف الظاهر .

ورابعاً – لا دليل اطلاقاً على أن المراد من « التأويل » في آية المحكم والمتشابه هو المعنى خلاف الظاهر، كما لم يقصد مثل هذا المعنى في الآيات التي ذكرت فيها لفظة التأويل، فمثلاً :

في قصة يوسف عليه السلام عبر في ثلاثة مواضع [1] عن

---

(١) ذكر رؤيا يوسف عليه السلام في الآية الثالثة من سورة يوسف « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .

وذكر تأويل رؤياه في الآية ١٠٠ على لسان يوسف حينما رأى أبيه وأمه بعد سنين من الفراق « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقل يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » .

ورؤيا ملك مصر مذكور في الآية ٤٣ « وقال الملك إني أرى سبع بقرات يأ كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . =

تعبير الرؤيا بكلمة « التأويل » ، وظاهر أن تعبير الرؤيا ليس معنى خلاف الظاهر للرؤيا بل هو حقيقة خارجية ترى في النوم بشكل مخصوص ، كأن رأى يوسف تعظيم أبيه وأمه واخوته بشكل سجدة الشمس والقمر والنجوم له ، ورأى ملك مصر سنوات القحط في صورة سبع بقرات عجاف يأكلن سبعاً سماناً ، ورأى صاحبا يوسف في السجن الصلب وخدمة الملك في صورة عصر الخمر وحمل الخبز على الرأس تأكل الطير منه .

وفي قصة موسى والخضر ، بعد أن يخرق السفينة ويقتل الغلام ويقيم الجدار ، يحتج عليه موسى في كل مرة فيذكر له السر الكامن وراء أعماله ويسميه « التأويل » . ومعلوم أن حقيقة الاعمال والنظر الحقيقي في انجازها كالروح لها سميت بالتأويل، وليست هي المعنى خلاف الظاهر لها .

= وتأويله مذكور في الآية ٤٧ – ٤٩ على لسان يوسف «قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلاقليلاًمما تأكلون * ثم يأتي من بعدذلك سبعشداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلكعام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

ورؤيا صاحبي يوسف في السجن مذكور في الآية ٣٦ « ودخلمعه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه » .

وتأويله مذكور في الآية ٤١ على لسان يوسف « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » .

ويقول تعالى بشأن الوزن والكيل: «واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطـــاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا »[1] . وواضح أنه يريد من التأويل في الكيل والوزن وضعاً اقتصادياً خاصاً يوجد في السوق بواسطة البيع والشراء والنقل والانتقال. والتأويل بهذا المعنى ليس معنى خلاف الظـــاهر من الكيل والوزن ، بل هو حقيقة خارجية ، وروح أوجدت في الكيل والوزن تقوى وتضعف بواسطة استقامة المعاملة وعدم استقامتها.

ويقول تعالى في موضع آخر : « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ... ذلــك خير وأحسن تأويلا »[2] . من الواضح أن المراد من التأويل في هذه الآية هو ثبــات الوحدة واقامة عـــلاقات روحية في المجتمع ، وهذه حقيقة خارجية وليست معنىً خلاف الظاهر لرد النزاع .

وهكذا المواضع الأخرى من القرآن الكريم الواردة فيها لفظة « التـــأويل » ، وهي مع ما سبق ستة عشر موضعاً . ففي كل هذه المواضع لا يمكن أخذ التـأويل بمعنى « المدلول خلاف الظاهر » ، بل هو معنى آخر يلائم ايضاً مع التأويل الوارد في آية المحكم والمتشابه كما سنذكره في الفصـل الآتي . ولهذا لا موجب لتفسير « التـأويل » في الآية المذكورة بمعنى « المدلول خلاف الظاهر » .

---

(١) سورة الاسراء : ٣٥ .
(٢) سورة النساء : ٥٩ .

المعنى الحقيقي للتأويل في عرف القرآن :

ملخص ما نستفيده من الآيات الوارد فيها لفظ «التأويل» – وقد سبق ذكر بعضها – أنه ليس من قبيل المعنى الذي هو مدلول اللفظ . فان من الواضح أن مـا نقل في سورة يوسف من رؤياه وتأويله لا يدل اللفظ الذي يشرح الرؤيا على تأويله دلالة لفظية ، ولو كانت تلك الدلالة من قبيل خلاف الظاهر. وهكذا في قصة موسى والخضر عليهما السلام، فان ألفاظ القصة لا تدل على التأويل الذي ذكره الخضر لموسى . كما أنه في آية « وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » لا تدل هاتين الجملتين دلالة لفظية على وضع اقتصادي خاص هو التأويل للأمر الوارد فيها . وفي آية « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » لا تـدل الآية دلالة لفظية على تأويله الذي هو الوحدة الاسلامية ... وهكذا دواليك في الآيات الاخرى لو أمعنا النظر فيها .

بل في الرؤيا تأويله حقيقة خارجية رآها الراؤون في صورة خـاصة ، وفي قصة موسى والخضر تأويل الخضر حقيقة تنبع منها أعماله التي عملهـا ، والأمر في آية الكيل والوزن تأويله مصلحة عامة تنبع منه ، وآية رد النزاع الى الله والرسول أيضاً شبيهة بما ذكرناه .

فتأويل كل شيء حقيقة ينبع ذلك الشيء منها وذلك الشيء

بدوره يحقق التأويل ، كما أن صاحب التأويل بقاؤه بالتأويل وظهوره في صاحبه .

وهذا المعنى جار في القرآن الكريم ، لأن هذا الكتاب المقدس يستمد من منابع حقائق ومعنويات قطعت أغلال المادية والجسمانية ، وهي أعلى مرتبة من الحس والمحسوس وأوسع من قوالب الألفاظ والعبارات التي هي نتيجة حياتنا المادية .

ان هذه الحقائق والمعنويات لا يمكن التعبير عنها بألفاظ محدودة ، وانما هي إلفات للبشرية من عالم الغيب الى ضرورة استعدادهم للوصول الى السعادة بواسطة الالتزام بظواهر العقائد الحقة والأعمال الصالحة ، ولا طريق للوصول الى تلك السعادة الا بهذه الظواهر ، وعندما ينتقل الانسان الى العالم الآخر تتجلى له الحقائق مكشوفة ، وهذا ما يدل عليه آيتا سورتي الأعراف ويونس المذكورتان .

والى هذا يشير أيضاً قوله تعالى : « حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم »[1] .

انطباق الآية على «التأويل» بالمعنى الذي ذكرناه واضح لا غبار عليه ، وخاصة لأنه قال «لعلكم تعقلون» ولم يقل «لعلكم تعقلونه» ، لأن علم التأويل خاص بالله تعالى كما جاء في آية

---

(١) سورة الزخرف : ١،٢،٣،٤.

المحكم والمتشابه «ومـا يعلم تأويله الا الله» ، ولهذا عندما تريد الآية أن تذكر المنحرفين الذين يتبعون المتشابهات، تصفهم بأنهم يبتغون الفتنة والتأويل ولم تصفهم بأنهم يجدون التأويل .

فـاذاً « التأويل » هو حقيقة أو حقائق مضبوطة في أم الكتاب ولا يعلمها الا الله تعالى وهي مما اختص بعالم الغيب .

وقـال تعالى أيضاً في آيات أخرى : «فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيـل من رب العالمين »[1] .

يظهر جلياً من هذه الآيات أن للقرآن الكريم مقامان : مقام مكنون محفوظ من المس ، ومقام التنزيل الذي يفهمه كل الناس .

والفائدة الزائدة التي نستفيدها من هذه الآيات ولم نجدها في الآيات السابقة هي الاستثناء الوارد في قوله « إلا المطهرون » الدال على أن هناك بعض من يمكن أن يـدرك حقائق القرآن وتأويله . وهـذا الاثبات لا ينافي النفي الوارد في قوله تعالى « ومـا يعلم تأويله إلا الله » ، لأن ضم احداهما الى الأخرى ينتج الاستقلال والتبعية ، أي يعرف منها استقلال علمه تعالى بهذه الحقائق ولا يعرفها أحد إلا باذنه عز شأنه وتعليم منه .

---

(١) سورة الواقعة : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

وعلم التأويل شبيه فيما ذكرنا بعلم الغيب الذي اختص بالله تعالى في كثير من الآيات، وفي آية استثنى العبـــاد المرضيون فأثبت لهم العلم به، وهي قوله تعالى: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول»[1]. فمن مجموع الكلمات في علم الغيب نستنتج أنـه بالاستقلال خاص بالله تعالى ولا يطلع عليه أحد إلا باذنه عز وجل.

نعم، المطهرون هم الذين يلمسون الحقيقة القرآنية ويصلون الى غور معارف القرآن – كما تدل عليه الآيات التي ذكرناها. ولو ضممنا هذه الى قوله تعالى «إنمـــا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»[2] الوارد حسب أحاديث متواترة في حق أهـل البيت عليهم السلام نعلم أن النبي وأهل بيته هم المطهرون العالمون بتأويل القرآن الكريم.

القرآن والناسخ والمنسوخ:

بضمن آيات الأحكام الواردة في القرآن آيات احتلت أحكامها مكان أحكام كانت موضوعة في آيات سابقة، فأنهت مفعولها ولم تعد تلك الأحكام معمولاً بهـــا. وتسمى الآيات السابقـة بـ «المنسوخ» والآيات اللاحقة بـ «الناسخ».

فمثلاً في بداية مبعث الرسول أمر المسلمون بمداراة أهـل

---

(١) سورة الجن: ٢٧.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.

الكتاب في قوله تعـــالى « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره »[1]. وبعد مدة أنهي هذا الحكم وأمروا بالقتال معهم في قوله « قـــاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون مـــا حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب »[2].

والنسخ الذي يدور على ألسنتنا حقيقته هي : وضع قانون لمصلحة ما والعمل به ثم ظهور الخطأ في ذلك والغاؤه ووضع قانون جديد مكانه .

لكن لا يمكن نسبة مثل هذا النسخ الدال على الجهل والخطأ الى الله تعالى المنزه عن كل جهـــل وخطأ ، ولا يوجد هكذا نسخ في الآيات الكريمة الخالية عن وجود أي اختلاف بينها .

بل النسخ في القرآن معناه : انتهاء زمن اعتبار الحكم المنسوخ. ونعني بهذا أن للحكم الأول كانت مصلحة زمنية محدودة وأثر موقت بوقت خاص تعلن الآية الناسخة انتهاء ذلك الزمن المحدود وزوال الأثر . ونظراً الى أن الآيات نزلت في مناسبات طي ثلاث وعشرين سنة من السهولة بمكان تصور اشتمالها على هكذا أحكام .

انوضع حكم موقت في حين لمتتم مقتضياتالحكم الدائم، ثم وضع الحكم الدائم وابدال الحكم الموقت به، شيء ثابت لا اشكال

---

(١) سورة البقرة : ٩٣ .

(٢) سورة التوبة : ٢٩ .

فيه . كما يفهم هذا أيضاً مما ورد في القرآن الكريم حول فلسفة النسخ . قال تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين »[1] .

الجري والانطباق في القرآن :

القرآن الكريم كتاب دائم لكل الأزمان وتسري احكامه على كل الناس، فيجري في الغائب كما يجري في الحاضر وينطبق على الماضي والمستقبل كما ينطبق على الحال . مثلاً الآيات النازلة في حكم على أحد المؤمنين بشروط خاصة في عصر النبوة يسري ذلك الحكم على غيره لو توفرت تلك الشروط في العصور التالية أيضاً ، والآيات التي تمدح أو تذم بعض من يتحلى بصفات ممدوحة أو مذمومة تشمل من يتحلى بها ممن لم يعاصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فاذاً مورد نزول آية ما لا يكون مخصصاً لتلك الآية نفسها. ونعني بذلك لو نزلت في شخص أو أشخاص معينين لا تكون الآية جامدة في ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص، بل تسري في كل من يشترك مع أولئك في الصفات التي كانت مورداً لتلك الآية .

---

(١) سورة النحل : ١٠٢ .

هذا هو الذي يسمى في ألسنة الأحاديث بـ «الجري» قال الأمام الباقر عليه السلام ، في حديثه للفضيل بن يسار، عندما سأله عن هذه الرواية : ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ومافيهاحرف إلا وله حدّ ولكل حدّ مُطّلَع،مايعني بقوله: ظهر وبطن ؟ قال (ع) : ظهره تنزيله وبطنه تأويله ، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد ، يجري كما يجري الشمس والقمر كلما جاء منه شيء وقع . الحديث .[1] .

وفي بعض الأحاديث يعتبر بطن القرآن – يعني انطباقه بموارد وجدت بالتحليل – مثل الجري[2] .

التفسير وظهوره وتطوره :

بدأ التفسير وبيان معاني ألفاظ القرآن وعباراته من عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان هو المعلم الأول للقرآن الكريم وتوضيح مقاصده وحل ما غمض من عباراته، قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم »[3] .

وقال: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة»[4] .

---

(١) تفسير العياشي ١/١٠ .

(٢) أنظر المصدر السابق ١/١١ .

(٣) سورة النحل : ٤٤ .

(٤) سورة الجمعة : ٢ .

وفي عصر النبي وبأمر منه اشتغل جماعة من الصحابة بقراءة القرآن وحفظه وضبطه ، وهم الذين يسمون بـ « القراء » . وبعد الصحـابة استمر المسلمون في التفسير ولا زال حتى الآن فيهم مفسرون .

علم التفسير وطبقات المفسرين :

اشتغل جماعة من الصحابة بالتفسير بعد أن ارتحل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الى الرفيق الأعلى، ومنهم أُبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وجـابر بن عبد الله الأنصاري وأبو سعيد الخدري وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وأنس وأبو هريرة وأبو موسى ، وكان أشهرهم عبدالله بن عباس .

كان منهج هؤلاء في التفسير أنهم ينقلون ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معاني الآيات بشكل أحاديث مسندة[١] وبلغت هذه الأحاديث كلها الى نيف وأربعين ومائتي حـديث أسانيد كثير منها ضعيفة ومتون بعضهـا منكرة لا يمكن الركون اليها .

وربمـا ذكر هؤلاء تفسير بعض الآيات على أنه تفسير منهم بدون اسناده الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فعدّ المفسرون من متأخري أهل السنة هذا القسم أيضاً من جملة الأحـاديث

(١) آخر كتاب الاتقان ، طبع القاهرة سنة ١٣٧٠ هـ .

بحجة أن الصحابة أخذوا علم القرآن من النبي ويبعد أن يفسروا من عند أنفسهم .

ولكن لا دليل قاطع على كلامهم هذا ، بالاضافة الى أن كمية كبيرة من الأحاديث المذكورة واردة في أسباب نزول الآيات وقصصها التاريخية ، كما أن فيها أحاديث غير مسندة منقولة عن بعض علماء اليهود الذين أسلموا ككعب الأحبار وغيره .

وكان ابن عباس في أكثر الأوقات يستشهد بأبيات شعرية في فهم معاني الآيات ، كما نرى ذلك جلياً في مسائل نافع بن الأرزق ، فان ابن عباس عند الاجابة عليها استشهد بالشعر في اكثر من مائتي مورد من الآيات ، وقد نقل السيوطى مائة وتسعين جواباً منها في كتابه الاتقان [1] .

ومن هنا لا يمكن اعتبار الأحاديث المنقولة عن الصحابة أحاديث نبوية كما لا يمكن القول بأنهم لم يفسروا مطلقاً برأيهم .

ومفسرو الصحابة هم الطبقة الأولى من مفسري الصحابة .

(الطبقة الثانية) هم التابعون ، وهم تلامذة مفسري الصحابة ، وهم مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وضحاك . ومن هذه الطبقة ايضاً الحسن البصري وعطاء بن ابي رباح وعطاء بن أبي مسلم وأبي العالية ومحمد بن كعب القرطي وقتادة

(١) الاتقان ص ١٢٠ — ١٣٣ .

وعطية وزيد بن أسلم وطاوس اليماني [1] .

(الطبقة الثالثة) تلامذة الطبقة الثانية ، كربيع بن انس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبو صالح الكلبي ونظرائهم [2].

---

(١) مجاهد ، مفسر مشهور ، توفي سنة ١٠٠ أو سنة ١٠٣ (تهذيب الأسماء للنووي) .

سعيد بن جبير ، مفسر معروف ، تلميذ ابن عباس ، قتله الحجاج الثقفي سنة ٩٤ (التهذيب) .

عكرمة ، مولى ابن عباس وتلميذه وتلميذ سعيد بن جبير ، توفي سنة ١٠٤ (التهذيب) .

ضحاك ، من تلامذة عكرمة (لسان الميزان) .

الحسن البصري ، زاهد ومفسر معروف ، توفي سنة ١١٠ (التهذيب) .

عطاء بن أبي رباح ، فقيه ومفسر مشهور ، من تلامذة ابن عباس ، توفي سنة ١١٥ (التهذيب) .

عطاء بن أبي مسلم ، من أكابر التابعين ، ومن تلامذة ابن جبير وعكرمة، توفي سنة ١٣٣ (التهذيب) .

أبو العالية، من أئمة التفسير وأكابر التابعين، كان في المائة الأولى من الهجرة (التهذيب) .

محمد بن كعب القرطي ، مفسر معروف ، وهو من أسرة يهودية من بني قريظة ، كان في المائة الأولى من الهجرة .

قتادة ، أعمى ، كان من أكابر المفسرين ، وهو من تلامذة الحسن البصري وعكرمة ، توفي سنة ١١٧ (التهذيب) .

عطية ، ينقل عن ابن عباس (لسان الميزان) .

زيد بن أسلم ، مولى عمر بن الخطاب ، فقيه ومفسر ، توفي سنة ١٣٦ (التهذيب) .

طاوس اليماني ، من أعلام عصره ، وهو تلميذ ابن عباس ، توفي سنة ١٠٦ (التهذيب) .

(٢) عبد الرحمن بن زيد ، يعد من علماء التفسير .

أبو صالح الكلبي ، النسابة المفسر ، وهو من أعلام القرن الثاني .

كان منهج التابعين في التفسير أنهم ينقلونه أحياناً بصورة أحاديث عن الرسول الكريم أو الصحابة ، وأحياناً ينقلونـه بشكل نظريات خاصة بلا اسنادها الى أحد ، فعامل متأخر والمفسرين مع هذه الأقوال معاملة الأحاديث النبوية واعتبروها أحاديث موقوفة [١] .

ويطلق على الطبقتين الأخيرتين لفظة «قدماء المفسرين» .

(الطبقة الرابعة) أوائل المؤلفين في علم التفسير ، كسفيان ابن عيينة ووكيـع بن الجراح وشعبة بن الحجاج وعبد بن حميد وغيرهم . و من هذه الطبقة أيضاً ابن جرير الطـبري صاحب التفسير المشهور [٢] .

ومنهج هذه الطبقة من المفسرين كان نقل أقوال الصحابة

---

(١) الأحاديث الموقوفة هي التي لم يذكر فيها المروي عنه .

(٢) سفيان بن عيينة، مكي من طبقة التابعين الثانية، وهو من علماء التفسير توفي سنة ١٩٨ (التهذيب) .

وكيـع بن الجراح ، كوفي من طبقة التابعين الثانية ، ومن مشاهير المفسرين توفي سنة ١٩٧ (التهذيب) .

شعبة بن الحجاج البصري ، من طبقة التابعين الثانيـــة ، وهو من مشاهير المفسرين ، توفي سنة ١٦٠ (التهذيب) .

عبد بن حميد ، صاحب تفسير ، من طبقة التابعين الثانية ، كان في القرن الثاني من الهجرة .

ابن جرير الطبري ، محمد بن جرير بن يزيد ، من مشاهير علماء السنة ، توفي سنة ٣١٠ (لسان الميزان) .

والتابعين بشكل أحاديث في مؤلفاتهم التفسيرية بـدون ذكر آرائهم الخاصة . إلا أن ابن جرير في تفسيره قد يبدي رأيه في ترجيح بعض الأحاديث على بعضها و كيفية الجمع بينها . ومن هذه الطبقة تبدأ طبقات المفسرين المتأخرين .

(الطبقة الخـــامسة) المفسرون الذين نقلوا الأحاديث في تفاسيرهم بحذف الأسانيد واكتفوا بنقل الأقوال والآراء .

قال السيوطي : فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل [١] .

الا أن المتدبر في الأحـــاديث المسندة يرى أيضاً كثيراً من الوضع والدس ، ويشاهد الأقوال المتناقضة تنسب الى صحابي واحد ، ويقرأ قصصاً وحكايات يقطع بعدم صحتها ، ويمر على أحاديث في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ لا تتفق مع سياق الآيات . ومن هنا نقل ان الامام أحمد بن حنبل قال : ثلاثة لا أصل لها المغازي والملاحم وأحاديث التفسير . ونقل عن الامام الشافعي أن الثابت من الأحاديث المروية عن ابن عباس مـــائة حديث فقط .

(الطبقة السادسة) المفسرون الذين كتبوا التفسير بعد ظهور العلوم المختلفة ونضجهـــا ، فكتب كل منهم حسب اختصاصه وفي العلم الذي أتقنه : فالنحوي أدرج المبـــاحث

---

(١) الاتقان ٢/١٩٠ .

النحوية كالزجاج والواحدي وأبي حيان [1] ، والأديب أورد المباحث البلاغية كالزمخشري في كشافه [2] ، والمتكلم اهتم بالمباحث الكلامية كالفخر الرازي في تفسيره الكبير [3] والصوفي غاص في المباحث الصوفية كابن العربي وعبد الرزاق الكاشاني في تفسيريهما [4] ، والاخباري ملأ كتابه بالأحاديث كالثعلبي في تفسيره [5] ، والفقيه جاء بالمسائل الفقهية كالقرطبي في تفسيره [6]. وقد خلط جماعة آخرون في تفاسيرهم بين العلوم المختلفة كما نشاهده في تفسير روح المعاني [7] وروح البيان [8]

---

(١) الزجاج ، من علماء النحو ، توفي سنة ٣١٠ (ريحانة الأدب) .
الواحدي ، نحوي مفسر ، توفي سنة ٤٦٨ (الريحانة) .
أبو حيان الأندلسي ، نحوي مفسر قارىء ، توفي في مصر سنة ٧٤٥ (الريحانة) .

(٢) الزمخشري ، من مشاهير علماء الأدب ، مؤلف تفسير الكشاف، توفي سنة ٥٣٨ (كشف الظنون) .

(٣) الإمام فخر الدين الرازي ، متكلم مفسر مشهور ، صاحب تفسير مفاتيح الغيب ، توفي سنة ٦٠٦ (كشف الظنون) .

(٤) عبد الرزاق الكاشاني ، من مشاهير علماء الصوفية في القرن الثامن الهجري (ريحانة الأدب) .

(٥) أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي ، صاحب التفسير المشهور ، توفي سنة ٤٢٦ أو ٤٢٧ (الريحانة) .

(٦) محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، توفي سنة ٦٦٨ (الريحانة) .

(٧) تأليف الشيخ اسماعيل حقي، توفي سنة ١١٣٧ (ذيل كشف الظنون).

(٨) تأليف شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ، توفي سنة ١٢٧٠ (ذيل كشف الظنون) .

وتفسير النيسابوري [1].

والخدمة التي قدمتها هذه الطبقة الى علم التفسير هي اخراجه من جموده واخضاعه للدرس والبحث ، ولكن الانصاف يقتضي القول بأن كثيراً من المباحث التي كتبها هؤلاء حملت على القرآن حملاً ولا تدل عليها الآيات .

أسلوب مفسري الشيعة وطبقاتهم :

الطبقات التي ذكرناها هي طبقات المفسرين من السنة ورأينا أن لهم منهجاً خاصاً في التفسير ساروا على ضوئه من حين نشأته ، فجعلوه أحاديث نبوية وأقوال للصحابة والتابعين ولم يجيزوا إعمال النظر فيها لأنه يكون من قبيل الاجتهاد مقابل النص . ولكن لما ظهر التناقض والتضارب والدس والوضع فيها بدأت الطبقة السادسة تعمل رأيها فيها وتجتهد .

أما المنهج الذي اتخذته الشيعة في تفسير القرآن الكريم فيختلف مع منهج السنة ، ولذا يختلف تقسيم طبقاتهم مع الطبقات المذكورة .

تعتقد الشيعة – بنص من القرآن الكريم – حجية أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التفسير ، وترى أن الصحابة والتابعين كبقية المسلمين لا حجية في أقوالهم إلا ما ثبت أنه

---

(١) غرائب القرآن ، تأليف نظام الدين حسن القمي النيسابوري ، توفي سنة ٧٢٨ (ذيل كشف الظنون) .

حديث نبوي . وقد ثبت بطرق متواترة في حديث الثقلين أن أقوال العترة الطاهرة من أهل بيته عليهم السلام هي تالية لأقوال الرسول ، فهي حجة أيضاً . ومن هنـا أخذت الشيعة في التفسير بما أثر عن النبي وأهل بيته عليهم السلام ، فكانت طبقات المفسرين منهم كما يلي :

(الطبقة الأولى) : الذين رووا التفسير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وائمة اهل البيت عليهم السلام وأدرجوا الأحاديث في مؤلفاتهم المتفرقة ، كزرارة ومحمد بن مسلم ومعروف وجرير وأشباههم [١] .

(الطبقة الثانية) أوائل المؤلفين في التفسير ، كفرات بن ابراهيم الكوفي وأبي حمزة الثمالي والعياشي وعلي بن ابراهيم القمي والنعماني [٢] .

---

(١) زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم من فقهـاء الشيعة وخواص أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام .

معروف بن خربوذ وجرير من خواص أصحاب الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام .

(٢) فرات بن ابراهيم الكوفي ، صاحب التفسير المشهور ، من مشائخ علي ابن ابراهيم القمي (ريحانة الأدب) .

أبو حمزة الثمالي ، من فقهاء الشيعة وخواص أصحاب الإمام السجاد والباقر عليهما السلام (الريحانة) .

العياشي ، محمد بن مسعود الكوفي السمرقندي، من أعيان علماء الامامية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (الريحانة) . =

وطريقة هؤلاء في تفاسيرهم تشبه طريقة الطبقة الرابعة من مفسري اهل السنة ، فقد رووا الأحاديث المأثورة عن الطبقة الأولى وأدرجوها مسندة في مؤلفاتهم ولم يبدوا آراءهم الخاصة في الموضوع .

ومن الواضح أن الزمن الذي كان يمكن الأخذ فيه عن الأئمة عليهم السلام كان طويلاً بلغ نحواً من ثلاثمائة سنة ، فكان من الطبيعي أن لا يضبط الترتيب الزمني لهاتين الطبقتين بصورة دقيقة ، بل كانتا متداخلتين من الصعوبة بمكان التفريق الدقيق بينهما .

وقد قلّ عند أوائل مفسري الشيعة نقل أحاديث التفسير بشكل روايات مرسلة في تفاسيرهم، وكنموذج لنقل الأحاديث مروية بدون أسانيد نلفت الأنظار الى تفسير العياشي الذي حذف بعض تلامذته اسانيده اختصاراً ، فاشتهرت نسخة التلميذ المختصرة وحلت محل نسخة الأصل .

(الطبقة الثالثة) اصحاب العلوم المختلفة، كالشريف الرضي في تفسيره الأدبي والشيخ الطوسي في تفسيره الكلامي المسمى بالتبيان والمولى صدر الدين الشيرازي في تفسيره الفلسفي والميبدي

= علي بن ابراهيم القمي ، من مشائخ الحديث الشيعي في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري .

النعماني ، محمد بن ابراهيم ، من أعيان علماء الامامية ، وهو تلميذ ثقة الإسلام الكليني ، كان في أوائل القرن الرابع الهجري (الريحانة) .

الكونابادي في تفسيره الصوفي والشيخ عبد علي الحويزي والسيد هاشم البحراني والفيض الكاشاني في تفـــاسيرهم نور الثقلين والبرهان والصافي [١] .

وهناك جماعة جمعوا في تفاسيرهم بين العلوم المختلفة، ومنهم الشيخ الطبرسي في تفسيره « مجمع البيان » الذي يبحث فيه عن اللغة والنحو والقراءة والكلام والحديث وغيرها [٢].

---

(١) الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي ، من أجلاء فقهاء الامامية أعلم أهل زمانه في الشعر والأدب، ومن تآليفه كتاب « نهج البلاغة » ، توفي سنة ٤٠٤ أو ٤٠٦ (ريحانة الأدب) ،

شيخ الطائفة ، محمد بن الحسن الطوسي ، من أعلام علماء الاماميـــة ، من تآليفه « التهذيب » و « الاستبصار » اللذين هما أصلان من الأصول الأربعة الحديثية عند الشيعة ، توفي سنة ٤٦٠ (الريحانة) .

صدر المتألهين ، محمد بن ابراهيم الشيرازي ، الفيلسوف المشهور ، مؤلف كتاب « أسرار الآيات » و « مجموعة تفاسير » ، توفي سنة ١٠٥٠ (روضات الجنات) .

الميبدي ،

السيد هاشم البحراني ، صاحب تفسير « البرهان » في أربعة أجزاء كبار توفي سنة ١١٠٧ (الريحانة) .

الفيض الكاشاني ، المولى محمد محسن بن المرتضى ، مؤلف كتاب « الصافي » و « الأصفى » ، توفي سنة ١٠٩١ (الريحانة) .

الشيخ عبد علي الحويزي الشيرازي ، مؤلف كتاب « نور الثقلين » في خمسة أجزاء ، توفي سنة ١١١٢ (الريحانة) .

(٢) أمين الاسلام ، الفضل بن الحسن الطبرسي ، من أعيان علماء الامامية صاحب « مجمع البيان » في عشرة أجزاء ، توفي سنة ٥٤٨ (الريحانة) .

كيف يتقبل القرآن التفسير ؟

الاجابة على هذا السؤال تتوضح من الفصول الماضية ، فان القرآن الكريم – كما ذكرنا – كتـاب دائم للجميع ، يخاطب الكل ويرشدهم الى مقاصده ، وقد تحدى في كثير من آياته على الاتيان بمثله واحتج بذلك على الناس، ووصف نفسه بأنه النور والضياء والتبيان لكل شيء ، فلا يكون مثل هذا الكتـاب محتاجاً الى شيء آخر .

يقول محتجاً على أنه ليس من كلام البشر : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»[1]

ليس فيه أي اختلاف ، ولو وجـد فيه اختلاف بالنظرة البدائية يرتفع بالتدبر في القرآن نفسه .

ومثل هذا الكتاب لو احتاج في بيـان مقاصده الى شيء آخر لم تتم به الحجة ، لانه لو فرض أن أحد الكفـار وجد اختلافـاً في شيء من القرآن لا يرتفع من طريق الدلالة اللفظية للآيات لم يقنع برفعه من طرق أخرى ، كأن يقول النبي مثلاً يرتفع بكذا وكذا، ذلك لأن هذا الكافر لا يعتقد بصدق النبي ونبوته وعصمته ، فلم يتنازل لقوله ودعاواه .

وبعبـارة أخرى : لا يكفي أن يكون النبي رافعاً للاختلافات القرآنية بدون شاهد لفظي من نفس القرآن لمن

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

لا يعتقد بنبوته وعصمته ، والآية الكريمة « أفـــلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » توجه الخطاب الى الكفار الذين لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فانهم لم يسلموا لأقواله لو لم يكن هناك شاهـــد قرآني صريح .

ومن جهة أخرى نرى أن القرآن نفسه يثبت حجية أقوال النبي وتفسيره ، كما أن النبي يثبت حجية أقوال أهـل بيته وتفسيرهم .

وهاتان المقدمتان توصلنا الى أن في القرآن آيات تفسر الآيات الأخرى، ومكانة الرسول وأهل بيته من القرآن كمرشد معصوم لا يخطأ في تعاليمه وارشاداته ، فما يفسرونه يطابق التفسير الذي يستنتج من ضم الآيات بعضها الى بعض ولا يخالفهـا في شيء .

نتيجة البحث :

النتيجة التي توصلنا اليها في الفصل الماضي هي أن التفسير الواقعي للقرآن هو التفسير الذي ينبع من التدبر في الآيات الكريمة وضم بعضها الى بعض .

وبعبارة أوضح : يمكن أن نتبع في التفسير احدى طرق ثلاث :

١ – تفسير الآية لوحدها بالمقدمات العلمية وغير العلمية التي نملكها .

٢ – تفسير الآية بمعونة الأحاديث المأثورة عن المعصومين .

٣ – تفسير الآية بالتدبر والدقة فيها وفي غيرها والاستفادة من الأحاديث .

الطريقة الثالثة هي المنهج الذي توصلنا اليه في الفصل الماضي وهو المنهج الذي حث عليه النبي وأهل بيته عليهم السلام فيما أثر عنهم. قال صلى الله عليه وآله وسلم «وإنما نزل ليصدق بعضه بعضاً » ، وقال علي عليه السلام « ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض » .

ومما ذكرنا يتوضح أن هذه الطريقة غير الطريقة المنهية في الحديث النبوي المشهور « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، لأن الطريقة المذكورة تفسير للقرآن بالقرآن لا بالرأي .

والطريقة الأولى من الطرق الثلاث لا يمكن الاعتماد عليها وهي في الحقيقة من قبيل التفسير بالرأي الذي لا يجوز ، الا ما وافق منه مع الطريقة الثالثة .

وأما الطريقة الثانية فهي التي كان يتبعها علماء التفسير في الصدر الأول وكان العمل عليها عدة قرون ، وهي الطريقة المعمولة حتى الآن عند الأخباريين من الشيعة والسنة .

وهذه الطريقة محدودة لا تفي بالحاجات غير المحدودة ، لأن ستة آلاف وعدة مئات من الآيات التي نقرأها في القرآن الكريم

تقابلها مئات الألوف من الأسئلة العلمية وغير العلمية ، فمن أين نجد الاجابة على هذه الاسئلة وكيف التخلص منها؟

هل نرجع فيها الى الروايات والأحاديث ؟

ان ما يمكن تسميته بالحديث النبوي في التفسير ، المروي من طريق السنة لا يزيد على مائتين وخمسين حديثاً ، مع العلم أن كثيراً من هذه الأحاديث ضعيفة الاسانيد وبعضها منكرة .

نعم الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام من طريق الشيعة تبلغ عدة آلاف حديث وفيها مقدار كثير من الأحاديث التي يمكن الاعتماد عليها ، الا انها مع هذا لا تكفي للاجابة على الاسئلة غير المحدودة التي نواجهها تجاه الآيات القرآنية الكريمة .

هذا ، بالاضافة الى أن هناك آيات لم يرد فيها حديث أصلا لا من طريق السنة ولا من طريق الشيعة ، فكيف نصنع بها ؟

ففي هذه المشاكل إما أن نرجع الى الآيات المناسبة لما نروم تفسيره ، وهذا ما تمنع عنه هذه الطريقة الحديثية . وإما أن نمتنع عن البحث في الآية بتاتاً ونغض الطرف عن حاجاتنا العلمية التي تدعونا الى البحث .

اذاً ماذا نصنع مع ما تدل عليه الآيات الكريمة التالية الحاثة على البحث والتدبر والتبيين ؟

قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء»[1] .

وقال : « أفلا يتدبرون القرآن »[2] .

وقال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب »[3] .

وقال : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم مـــا لم يأت آباءهم الأولين »[4] .

وقد ورد في أحاديث صحيحة عن النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم حثوا على الرجوع الى القرآن الكريم عند حدوث الفتن وظهور المشاكل[5] ، فماذا نصنع بهذه الأحاديث ؟

وقد ثبت أيضاً عن طريق العامة في أحـاديث نبوية وعن طريق الخاصة في روايات متواترة عن النبي وائمة أهل البيت عليهم السلام ضرورة عرض الأخبار على كتاب الله تعـالى[6] وبموجبها يجب عرضهـا على القرآن الكريم فما وافقه يؤخذ به وما خالفه يطرح .

من البديهي أن مضمون هذه الأحاديث يصح لو كانت الآيات

---

(١) سورة النحل : ٨٩ .
(٢) سورة النساء : ٨٢ .
(٣) سورة ص : ٢٢ .
(٤) سورة المؤمنون : ٦٧ .
(٥) أنظر أوائل تفسير العياشي والصافي والبرهان وبحار الأنوار .
(٦) بحار الأنوار ١/١٣٧ ، باب اختلاف الأخبار .

تدل على مرادها ويكون لمدلولها – وهو التفسير – اعتبار، فلو رجعنا لمعرفة محصل مدلول الآية – وهو التفسير – الى الحديث لم يبق موضع لعرض الحديث على القرآن .

ان هذه الأحاديث التي أشرنا اليها أحسن شاهد على أن الآيات القرآنية كبقية ما يتكلم به المتكلمون لها مداليلها، وهي في نفسها حجة مع غض النظر عن الأحاديث الواردة في التفسير.

قد تبين من البحوث السابقة أن واجب المفسر هو ملاحظة الأحاديث الواردة في التفسير عن النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام والغور فيها ليعرف طريقتهم ، ثم يفسر القرآن الكريم بالمنهج الذي يستفاد من الكتاب والسنة ويأخذ بالأحاديث التي توافق الكتاب ويطرح ما عداها .

نموذج من تفسير القرآن بالقرآن :

قال الله تعالى : «الله خالق كل شيء »[١] .

تكرر مضمون هذه الآية الكريمة في أربعة مواضع من القرآن، وبحسب هذا المضمون جميع المخلوقات الموجودة في الكون هي من خلق الله تعالى وصنعه .

ويجب أن لا تغرب عنا هذه النكتة أن في مئات من الآيات صُدق موضوع العلية والمعلولية ، ونُسب فيها فعل كل فاعل

---

(٤) سورة الزمر : ٦٢ .

اليه ، واعتبرت الأفعال الاختيارية من أفعال الانسان نفسه وخُصت الآثار بالمؤثرات كالاحراق بالنار والنبات الى الأرض والمطر الى السماء وغيرها .

والنتيجة أن صانع كل شيء وفاعله يُنسب فعله وصنعه اليه إلا أن مفيض الوجود والموجد الحقيقي للفعل هو الله تعالى ليس غيره .

ومن هنا نعرف التعميم الذي نجده في قوله تعالى «الذي أحسن كل شيء خلقه» [1] ، فلو انضمت هذه الآية الى الآية السابقة لرأينا الجمال والخلقة قرينين، فكلما وجد في عالم المخلوقات من خلق كان موصوفاً بالجمال .

ويجب أيضاً أن لا تغرب عنا هذه النكتة أن الآيات القرآنية تعترف بالخير مقابل الشر والنفع مقابل الضرر والحسن مقابل السيء والجمال مقابل القبح، وتعتبر كثيراً من الأفعال والأقوال والأفكار حسنة أو سيئة ، ولكن هذه المساوىء والقبائح والشرور تبدو واضحة اذا ما قيست بما يقابلها ، فوجودها نسبي وليس بنفسي .

مثلاً الحية والعقرب مؤذيان ، لكن بالنسبة الى الانسان والحيوانات التي تتألم من سمها لا بالنسبة الى الحجر والتراب . والشيء المر والرائحة الكريهة منفوران ، لكن بالنسبة الى

---

(١) سورة السجدة : ٧ .

ذائقـــة الانسان وشامته لا بالنسبة الى كل الحيوانات وبعض الأعمـــال والأقوال تبدو شاذة ، لكن بالنسبة الى البيئة التي يعيش فيها الانسان لا بالنسبة الى كل البيئات .

نعم لو لم نلاحظ النسبة والقياس وننظر الى الأشياء بنظرة مطلقة نراها في منتهى الجمال ونرى الوجود أخاذاً يلفت النظر ولا يمكن وصف حسنه وجماله ، لأن الوصف نفسه من الخلق الجميل الذي يحتاج بدوره الى وصف .

والآية المذكورة أعلاه تريد صرف الأنظار عن وجوه الجمال والقبح النسبية والقياسية والاعتبارية لتوجهها الى الجمال المطلق وتجهز الأفهام لادراك الكلي والعموم الذي هو الأهم .

إذا ما أدركنا النقـاط المشروحة في مئـــات من الآيات القرآنيةالتي تصف عالم الوجود–بكل جزء جزء منه وبمجموعة مجموعة منه وبمختلف أنظمته الكلية والجزئيـــة – لنرى أنه أحسن دليـل على التوحيد وأعظم مرشد الى معرفة الله تعالى وكمال قدرته .

لو تأملنا في الآيتين المذكورتين سابقاً وامعنا النظر فيما سبق من الكلام ، نعلم أن هذا الجمـال المحير الذي ملأ عالم الوجود كله انما هو لمعة من الجمـــال الالهي ندركه نحن بواسطة الآيات السماوية والأرضية ، وكل جزء من العالم كوة ننظر منهـــا الى القدرة اللامتناهية لنعرف أن ليس لهذه الأجزاء شيء من القدرة الا ما أفيض عليها .

ولهذا نرى في آيات قرآنية كثيرة نسبة أنواع الجمال والكمال الى الله تعالى ، فتقول : « هو الحي لا إله إلا هو »[1] .

و « ان القوة لله جميعاً »[2] .

و « فان العزة لله جميعاً »[3] .

و « هو العليم القدير »[4] .

و « هو السميع البصير »[5] .

و « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى »[6] .

فبمقتضى هذه الآيات كل جمال وكمال نراه في عالم الوجود هو في الحقيقة من الله تعالى وليس لغيره الا المجاز والعارية .

وتأكيداً لما مضى ذكره يوضح القرآن الكريم بأسلوب آخر أن الجمال والكمال المودع في مخلوقات العالم انما هو محدود متناهي ، وهو عند الله تعالى غير محدود وليس له نهاية ، قال عز من قائل « إنا كل شيء خلقناه بقدر »[7] .

وقال : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم »[8] .

---

(١) سورة المؤمن : ٦٥ .
(٢) سورة البقرة : ١٦٥ .
(٣) سورة النساء : ١٣٩ .
(٤) سورة الروم : ٥٤ .
(٥) سورة الإسراء : ١ .
(٦) سورة طه : ٨ .
(٧) سورة القمر : ٤٩ .
(٨) سورة الحجر : ٢١ .

عندما يتقبل الانسان هذه الحقيقة القرآنية يرى نفسه أمام الجمـال والكمال اللامتناهي يحيط به من كل جانب وليس فيه خلا أصلا ، ينسى كل جمال وكمال في العـالم ، وحتى نفسه التي هي من تلك الآيات ينساها وينجذب الى خالق الجمال والكمال قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » [١] .

عنـد هذا يسلم العبد ارادته واستقلاله الى الله تعالى كما هو من شؤون الحب والعبودية الخالصة ، فينضوي تحت لواء الحق ويدخل في ولايته ، كما يقول عز وجل «والله ولي المؤمنين» [٢] « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » [٣] .

فيجد حينئذ روحاً أخرى ويحيا حياة جديدة ويشرق في قلبه نور الحقيقة ، فتتفتح له طرق السعـــادة ليشق مسيرته الكريمة بين المجتمع ، قال تعالى : « أو من كان مؤمناً فأحيينا له نوراً يمشي به في الناس » [٤] وقال « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » [٥] .

وفي آية اخرى يرمز تعـــالى الى كيفية حصول هذا النور فيقول « يا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وآمنـوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » [٦] .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .
(٢) سورة آل عمران: ٦٨ .
(٣) سورة البقرة : ٢٥٧ .
(٤) سورة الأنعام : ١٢٢ .
(٥) سورة المجادلة : ٢٢ .
(٦) سورة الحديد : ٢٨ .

وقد فسر الايمان بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في آية أخرى بالتسليم له واتباعه، فقال « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله »[1].

ووضح الاتباع في آية أخرى، فقال «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم»[2].

وأوضح من هذا نجد معنى الاتباع في آية أخرى أيضاً حيث يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[3].

فبمقتضى هذه الآية الكريمة البرنامج الكامل الاسلامي هو المتطلبات التي يحتاج اليها من يعيش في الكون، ونعني بها القوانين والشرائع التي تدل عليها الفطرة الانسانية، الحياة غير المعقدة التي يحياها الانسان المستقيم، كما يقول تعالى في موضع آخر «ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها »[4].

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يساوي بين الحياة

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.
(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .
(٣) سورة الروم : ٣٠ .
(٤) سورة الشمس : ٧ — ١٠ .

الانسانيــــة السعيدة والحياة الفطرية النزيهة وهو بعكس جميع الكتب والمنــاهج الأخرى يجمع بين البرامج الدينية والبرامج الحياتية ، فله رأيه الخاص في الفرد والمجتمع وله كلمته في كل الشؤون، ودستوره ينظر الى الحقائق الثابتة (معرفة الله تعالى - النظرة الشاملة الى الكون) بأعمق النظرات .

ان القرآن يصف أولياء الله تعالى وعباده المخلصين بكثير من النعوت والخواص الصورية والمعنوية التي يحتلون بها نتيجة لإيمانهم الخالص ويقينهم الثابت، ويؤسفنا أن هذا الفصل القصير لا يسع لسردها بصورة مفصلة .

معنى حجية أقوال النبي والأئمة:

قد ذكرنا فيما سبق أن القرآن نفسه يثبت حجية أقــوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام في التفسير.

هذه الحجية واضحة في أقوال النبي والأئمــــة الصريحة والأحاديث قطعية الصدور ، أما الأحاديث غير قطعية الصدور (المسماة بأخبار الآحاد والتي اختلف المسلمون في حجيتها وعدم حجيتها) فأمرها يرجع الى المفسر نفسه .

ان السنة يعملون مطلقا بالخبر الواحد الصحيح ، وأمــــا الشيعة فالذي ثبت تقريباً عندهم في علم أصول الفقه حجية الخبر الواحد الموثوق الصدور في الأحــــكام الشرعية ولا يعتبر في غيرها .

ولمزيد التحقيق في الموضوع لا بد من الرجـوع الى أصول الفقه .

تنبيـه :

على فرض أن يكون « التفسير » بيـان محصل مدلول الآية تدخل في علم التفسير البحوث التي لهـا تأثير في تفسير الآية . أما البحوث التي لا يكون لها تأثير في معرفة محصـل مدلول الآية ـ كبعض البحوث اللغوية والقراءة والبديع وما أشبهها ـ لا تكون هذه البحوث من تفسير القرآن في شيء .

الفصل الثالث

وحي القرآن الكريم

المسلمون ووحي القرآن :

تحدث القرآن الكريم عن الوحي ومنزل الوحي اكثر من غيره من الكتب السماوية المقدسة كالتوراة والانجيل، وحتى نجد فيه آيات تتحدث عن كيفية الوحي نفسه .

ويعتقد عامة المسلمين[1] في وحي القرآن: أن القرآن بلفظه كلام الله تعالى أنزله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة أحد الملائكة المقربين .

هذا الملك الوسيط يسمى بـ «جبرائيل» و «الروح الأمين» جاء بكلام الله تعالى الى الرسول في فترات مختلفة بلغت ثلاثاً وعشرين سنة . وكان على الرسول أن يتلو الآيات على النـاس ويوقفهم على معانيها ويدعوهم الى ما فيها من المعارف الاعتقادية والآداب الاجتماعية والقوانين المدنية والوظائف الفردية .

---

(١) هذه العقيدة ناشئة مما يفهم من ظواهر ألفاظ القرآن الكريم .

وقام الرسول بأداء ما كان عليه نصاً بدون أن يتصرف في مواد الدعوة الإلهيـة أو يضيف عليها أو ينقص منها أو يقدم أو يؤخر شيئاً من موضعه .

كتاب العصر والوحي والنبوة :

أما الباحثون وكتاب العصر الذين لهم بحوث حديثة في الأديان والمذاهب ، فيعتقدون في وحي القرآن والنبوة أنه :

كان نبي الاسلام نابغة عارفاً بالأوضاع الاجتماعية ، وسعى في خلاص البشرية من مهوى الوحشية والانحطاط الخلقي ورفعها الى أوج المدنية والحرية ، فدعى الناس الى اعتناق آرائه الطاهرة التي تجلت بشكل دين جامع كامل .

يقولون : كان النبي يحمل روحاً نزيهة وهمة عالية ، عاش في بيئة يسودها الظلام وتتحكم فيها القوة والأراجيف والهرج الاجـتماعي وتتسم بحب الذات والسيطرة غير المشروع على الأموال وتتجلى فيها كل مظاهر الوحشية المقيتة .

كان النبي في ألم نفسي دائم من هذه البيئة الفاسدة ، فكان كلما بلغت الآلام في نفسه الكريمة مبلغها يأوي الى غـار في احدى جبال تهامة ، فيبقى فيه اياماً ليخلو الى نفسه ، وكان يتوجه بكل حواسه الى السماء والأرض والجبال والبحـار والأودية والآجام وما وضعته الطبيعة تحت تصرف البشرية من سائر النعم ، وكان يأسف على الانسان المنهمك في الغفلة والجهل

وقد أبدل حياته السعيدة الهانئة بحياة نكدة تضاهي حياة الحيوانات الوحشية .

كان النبي الى حوالي اربعين سنة من عمره يدرك تلك المفاسد الاجتماعية ويتألم من جرائها بالآلام النفسية ، ولما بلغ الأربعين من عمره وفق الى كشف طريق للاصلاح يمكن بواسطته ابدال تلك الحياة الفاسدة بحياة سعيدة فيها كل معاني الخير ، وذلك الطريق هو « الاسلام » الذي كان يتضمن أرقى الدساتير التي كانت تناسب مزاج ذلك العصر .

كان النبي يفرض ان أفكاره الطاهرة هي كلام الهي ووحي سماوي يلقيها الله تعالى في روعه ويتكلم بها معه . كما كان يفرض روحه الخيرة التي تترشح منها هذه الأفكار لتستقر في قلبه هي « الروح الأمين » و «جبرائيل» والملك الذي ينزل الوحي بواسطته .

وسمى النبي بشكل عام القوى التي تسوق الى الخير وتدل على السعادة بـ « الملائكة » ، كما سمى القوى التي تسوق الى الشر بـ «الشياطين» و «الجن» . وقد سمى ايضاً واجبه الذي املاه عليه وجدانه بـ « النبوة » و « والرسالة » .

* * *

الرأي الذي ذكرناه باختصار هو للباحثين المعتقدين بالله تعالى وينظرون الى الدين الاسلامي بنظرة فيها شيء من الانصاف والتقييم . أما الملحدون الذين لا يعتقدون بالله تعالى فانهم

يعتبرون النبوة والوحي والتكاليف الالهية والثواب والعقاب والجنة والنار سياسات دينية بحتة ، وهم يذهبون الى أن هذه كلها أكاذيب قيلت لمصالح خاصة ضرورية في حينها .

يقولون : ان الأنبياء كانوا مصلحين جاؤا ببرامج اصلاحية في إطار ديني . ونظراً الى أن الناس كانوا في العصور السالفة منهمكين في الجهل والظلمة والخرافات وضع لهم الأنبياء النظم الدينية في ظل سلسلة من العقائد الخرافية تتمثل في مسائل المبدأ والمعاد .

ماذا يقول القرآن في الموضوع :

تفسير الوحي والنبوة بالشكل الذي بيناه انما هو لأولئك الباحثين الذين اشتغلوا بالعلوم المادية الطبيعية ، فهم يرون أنَّ ما يوجد في الكون لا بد أن يفسر بالتفسير المادي الطبيعي ، وتنتهي جميع الحوادث والأحداث عندهم الى الأسباب الطبيعية البحتة . ومن هنا فسروا التعاليم السماوية بتفاسير اجتماعية تتفق واتجاههم الطبيعي، ونظروا الى تلك التعاليم كأحداث ظهرت لتفاعلات اجتماعية خاصة .

فهي اذاً تشبه الأحداث التي ظهرت على أيدي بعض النوابغ أمثال الملك كورش وداريوش والاسكندر المقدوني ، فكما لا تفسير لأعمال لو نسبوها الى الله تعالى والأوامر السماوية الا ما مضى فكذا لا تفسير لأعمال الأنبياء الا ما ذكروه .

نحن لا نريد هنا البحث عما يتعلق بما وراء الطبيعة ، كما لا نريد أن نقول لهؤلاء الباحثين : ان لكل علم أن يبحث فيما يدخل في إطاره من مسائله الخاصة، ولا يحق للعلوم المادية التي تختص بشؤون المادة وخواص آثارها أن تبحث عما يتعلق بما وراء الطبيعة نفياً أو اثباتاً .

لا نريد هذا ، ولكننا نقول : ان التفسير المذكور للوحي والنبوة يجب أن يعرض على الآيات القرآنية التي هي سند نبوة النبي الكريم ، لنرى هل يلتقيان معاً أم لا يلتقيان ؟

القرآن الكريم صريح في عكس التفسير السابق للوحي والنبوة، ولا يلتقي معه في شيء من آياته . ولا بأس أن نستعرض هنا مقاطع ذلك التفسير الموهوم مع ما جاء في القرآن، فنقول:

١ – كلام الله تعالى :

يقول التفسير السابق: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمي أفكاره الطاهرة التي كانت تنقدح في ذهنه بـ « كلام الله » .

ومعنى هذا التفسير أن تلك الأفكار كبقية أفكار النبي كانت نتيجة لما تدور في خلده ، ولكنها لما كانت طاهرة ومقدسة نسبت الى الله تعالى ، فهي منسوبة الى النبي بالنسبة الطبيعية ومنسوبة الى الله بالنسبة التشريعية .

ولكن القرآن الكريم يصرح في آيات التحدي بنفي كونه من كلام النبي أو أي انسان آخر، فيقول : « أم يقولون افتراه

قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » [١] .

ويقول: «أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » [٢] .

ويقول: « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» [٣] .

ويقول : « فإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» [٤] .

ويقول : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » [٥] .

من الواضح البديهي أن هذه التصريحات لا تناسب كون القرآن من كلام الرسول وقد نسب الى الله تشريفاً، بل تثبت قطعاً أنه من كلام الله تعالى لا غير .

وبالاضافة الى هذا يسرد القرآن في مئات من آياته ماظهر من المعاجز وخوارق العادة على يد الأنبياء عليهم السلام أثبتوا

---

(١) سورة يونس : ٣٨ .
(٢) سورة هود : ١٣ .
(٣) سورة الاسراء : ٨٨ .
(٤) سورة البقرة : ٢٣ .
(٥) سورة النساء : ٨٢ .

بواسطتها نبوتهم واستدلوا بها على رسالتهم . فلو كانت النبوة ذلك النداء الوجداني والوحي تلك الأفكار الطاهرة – كما يقوله التفسير المذكور – لما احتاج القرآن الى اقامة الحجة وتأكيدها على نبوة الأنبياء بسرد قصص المعاجز والكرامات.

وقد أول بعض الكتاب هذه المعاجز الصريحة بشكل مضحك ، الا أن كل واحد من القراء عندما يراجع ما قالوه في تأويلاتهم يرى أن مدلول الآيات القرآنية لا يتفق مع ما ذهبوا اليه من الآراء الخاطئة .

لا نريد في هذا البحث اثبات امكان تحقق المعجزة وخوارق العادة ، أو التأكيد على صحة القصص القرآنية . بل نحاول القول بأن القرآن أثبت صريحاً للأنبياء السابقين كصالح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام معاجز خاصة ، ولا يمكن حمل هذه القصص الا على أنها خوارق للعادة. ولا نحتاج – كما قلنا – الى المعاجز في اثبات النداء الوجداني والفكر الطاهر .

٢ – جبرائيل والروح الأمين:

يسمى التفسير السابق روح الرسول الطاهرة التي كان دأبها طلب الخير والاصلاح الاجتماعي بـ « الروح الأمين » ، ويسمي ما تلقيه الروح الزكية في روعه المبارك بـ « الوحي » .

ولكن القرآن الكريم لا يؤيد ما ذهب اليه هؤلاء ، لأنه يصرح بأن وسيط الوحي يسمى بـ « جبرائيل » ، وعلى التفسير

المذكور لا موجب لهذه التسمية بتاتاً. يقول تعالى : « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله »[1].

نزلت هـذه الآية في الرسول الذين سألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عمن يأتيه بالوحي، فأجابهم أنه جبرائيل الملك قالوا: ذاك عدونا من الملائكة ولو كان ميكائيل لاتبعناك[2] .

يرد الله تعالى في هذه الآية على اليهود ، ويؤكد بأن جبرائيل إنما جاء بالوحي باذن منه عز شأنه ، فيثبت بأن القرآن من كلام الله تعالى وليس من كلام جبرائيل .

وواضح بأن اليهود كانوا أعداءاً لملك سماوي كان يأتي بالوحي من السماء، وكان ذلك الملك غير موسى بن عمران ومحمد بن عبدالله صلى الله عليهما ، كما لم يكن روحيهما الطاهرة .

والقرآن نفسه الذي صرح في الآية المذكـــورة أن وسيط الوحي هو جبرائيـــل ، صرح في آية أخرى انه الروح الأمين فقال : « نزل به الروح الأمين على قلبك »[3] .

ويقول تعـــالى في موضع آخر بصدد التعريف بوسيط الوحي : « إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش

---

(١) سورة البقرة : ٩٧ .

(٢) الدر المنثور ١/ ٩٠ ، ونور الثقلين ١/ ٨٧ - ٨٩ ، وغيرهما .

(٣) سورة الشعراء : ١٩٤ .

مكين * مطاع ثم امين * ومـــا صاحبكم بمجنون * ولقدرآه بالأفق المبين » [١] .

وهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أنجبرائيل منالملائكة المقربين عند الله تعـالى ، وهو ذو قوة عظيمة ومنزلة رفيعـة وهو المطاع الأمين .

ويصف الملائكة المقربين في موضع آخر بقوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » [٢] .

تدل الآية على أن الملائكة موجودات لهم ارادتهم ومداركهم واستقلالهم ، لأن الأوصاف المذكورة فيهـــا – كالايمان بالله والتسبيح له والاستغفـار المؤمنين – لا تتوفر الا فيمن يتم له الاستقلال الكامل والمدارك التامة والارادة الخاصة .

ويقول تعالى في الملائكة المقربين أيضاً : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً» الى أن يقول: «وأما الذيناستنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولايجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » [٣] .

---

(١) سورة التكوير : ١٩ – ٢٣ .
(٢) سورة المؤمن : ٧ .
(١) سورة النساء : ١٧٣ .

ان المسيح والملائكة المقربين لا يعصون الله طرفة عين ولكن مع ذلك هددهم تعالى بالعذاب الأليم لو تلبسوا بالمعصية والتهديد من عذاب يوم القيامة المتفرع على ترك نوع من التكليف لا يصح الا بالاستقلال والارادة .

ويتضح من الآيات المذكورة أن الروح الأمين — الذي يسمى جبرائيل أيضاً وهو الذي يأتي بالوحي الالهي — له استقلاله وارادته ومداركه ، بل يستفاد من خلال آيات سورة التكوير «مطاع ثم أمين» أنه يأمر وينهى في الملأ الأعلى وتطيعه الملائكة المقربون ، بل نرى في بعض الأحيان أن الوحي ربما يأتي على يد ملائكة يأتمرون بأوامره ، كما تشير الى ذلك الآيات الواردة في سورة عبس « كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة »[١].

٣ — الملائكة والشياطين :

يؤكد التفسير السابق أن « الملائكة » اسم للقوى الطبيعية الداعية الى الخير والسعادة ، «والشياطين » اسم للقوى الطبيعية الداعية الى الشر والشقاء .

ولكن المستفاد من القرآن الكريم خلافه ، فانه يعتبر الملائكة والشياطين مخلوقات لا تدرك بالحواس الظاهرية الا أن لها وجود خارجي وهي ذات ادراك وارادة مستقلة .

---

(١) سورة عبس : ١١ — ١٦ .

أما الملائكة فقد نرى التصريح في الآيات الماضية بأنها موجودات مستقلة مؤمنة تصدر منها أعمال تحتاج الى الارادة والادراك ، وفي القرآن كثير من أمثال هذه الآيات لا يسع البحث سردها كلها .

وأما الشياطين فقصة ابليس وعدم سجوده لآدم عليه السلام والمحاورات التي جرت بينه وبين الله تعالى مذكورة في عدة مواضع من القرآن ، فقد قال بعد أن أخرج من صفوف الملائكة « لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » ، فقال تعالى له « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » [1] .

وغير خفي أن الجزاء والعقاب لا يصح الا للمريد الذي يدرك الحسن والقبح ، ومعنى هذا أن الشياطين لها كامل الادراك والارادة .

وفي آية أخرى نرى أن الله تعالى وصف ابليس بالظن الذي هو من مصاديق الادراك فقال : « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » [2] .

ويصرح في آية أخرى بأن ابليس يدفع اللوم عن نفسه ، وهذا لا يكون الا ممن يدرك ، وله الارادة التامة ، فيقول تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق

---

(١) سورة ص : ٨٣ — ٨٥ .
(٢) سورة سبأ : ٢٠ .

ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »[1] .

ان هذه الآيات الكريمة وآيات أخرى بمضمونهـــا تثبت للشيطان صفات لا تتم الا مع الادراك والاستقـلال في الارادة وهي لا تتفق مع القوى الطبيعية التي لا تتوفر فيها هذه الصفات البتة .

الجن :

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم حول الجن أكثر مما ورد حول الملائكة والشياطين ، ففي آية يصف الله تعالى فيها أولئك الذين لم يستمعوا الى دعوة آبائهم وأمهاتهم ونسبوا الدين الى الأساطير يقول : « أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين»[2].

ويقول تعالى في موضع آخر : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين* قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنـــا أجيبوا داعي الله وآمنوا بـــه يغفر لـكم من ذنوبكم

---

(١) سورة ابراهيم: ٢٢ .
(٢) سورة الأحقاف : ١٨ ،

ويُجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين»[1].

تدل هذه القصة على أن الجن كالأنس لهم وجود مستقل وارادة وادراك وتكليف ، ونجد أيضا في الآيات التي تصف أحوال القيامة مايدل على مانستفيده من هذه الآيات الكريمة.

٤ – صرخة الضمير :

يستفاد من التفسير المذكور سابقاً أن النبوة والرسالة هي صرخة الضمير للاصلاح الاجتماعي العام الشامل ، والسعي في رفع المساوىء الاجتماعية وابدالها بما يضمن للمجتمع السعادة والرفاه .

ولكن المستفاد من القرآن الكريم خلاف هذا المعنى فانه يقول : « ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها »[2] .

ومعنى هذا أن كل انسان يعرف أعماله الحسنة والسيئة بما أوتي من صفاء الضمير فيدرك به صرخة الوجدان الاصلاحية الا أن هناك من يهتم بهذه الصرخة فيصبح من السعداء ومن لا يعتني بها فيعود من الأشقياء ، كما قال تعالى : « قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها »[3] .

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٩ – ٣٢ .
(٢) سورة الشمس : ٧ – ٨ .
(٣) سورة الشمس : ٩ – ١٠ .

فلو كانت النبوة والرسالة أثر من تلك الصرخة لكانت عامة في الناس مودعة في كل الضمائر ، وكان جميع النـــاس أنبياء ورسلاً ، مع العلم إنا نجد أن الله تعالى يختص بعض عباده بهما فيقول : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته » [1] .

تدل الآية الكريمة على أن الكفار كانوا يشترطون لإيمانهم عمومية الرسالة ليكون لهم حصة منها، فيرد عز شأنه عليهم مثبتاً أن الرسالة خاصة بفئة مختارة .

٥ – حول التفسير الثاني :

لقد كررنا القول اننا لا نحاول في هذه البحوث المختصرة اثبات أن الدين الاسلامي حق ودعوى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صدق، بل نريد أن نذكر أن تفسير أولئك الباحثين الوحي والنبوة والرسالة بمافسروه به خاطىء لا يطابق ما جاء في القرآن العظيم ، فنقول بصدد التفسير الثاني :

يحاول التفسير الثاني أن يفسر الأصول الاعتقادية التي أتى بهـا الرسول بأنها مجموعة من العقائد الخرافية التي ألقيت على الناس بشكل دين سماوي، ذلك لأن الناس كانوا في جهل وأمية ولو تتوفر فيهم الثقافة والعلم فلم يمكن اصلاحهم الا من هـذا الطريق . كانت هذه التعاليم الخرافية من صالح الناس ، وكان

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٤ .

من الضروري أن يلقى عليهم بهذا اللون العقائدي الذي يحفه الخوف من الله ورجاء الجزاء في العالم الآخر ووجود الجنة والنار والحساب والكتاب ، ولولا هذا اللون المزيج بالخرافة لما أمكن اصلاحهم بما ينجيهم من واقعهم الأليم .

نقول : اننا لا نعلم الشيء الكثير عن حياة الأنبياء الماضين عليهم السلام ، الا أن حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مدروسة بصورة واضحة جلية ، ويتبين من خلالها للمراجع الدقيق أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الايمان بدعوته وكان يطمئن الى صحتها كامل الاطمئنان . فلو كانت العقائد الاسلامية خرافية – كما يزعمون – لم يكن هناك حاجة الى مثل هـذه الأدلة الكثيرة التي يقيمها القرآن الكريم عليها ، كأدلة اثبات الصانع وتوحيده تعالى وبقية الصفات الالهية وسائر العقائد العائدة الى موضوع النبوة والمعاد وغيرهما .

٦ – ماذا يقول القرآن في الوحي والنبوة :

ملخص ما نستفيده من الآيات الكريمة أنها تعتبر القرآن كتاباً سماوياً ألقي الى الرسول من طريق الوحي ، والوحي هو كلام سماوي (غير مادي) ليس للحواس الظاهرية والعقل أن تصل اليه ، بل ربما يوجد في بعض من يختاره الله تعالى ما يدرك بواسطة قوى ربانية الأوامر الالهية والدستور الغيبي (غير المحسوس بالعقل والحواس الأخرى) ، وهذه الحالة هي من حالات النبوة وبها يتلقى النبي الشريعة الالهية .

ولزيادة توضيح هذا الموضوع يجب أن ندرس النقاط التالية:

أ ـ الهداية العامة وهداية الانسان :

لقد ذكرنا في مباحث سابقة بصورة موسعة أن لكل موجود في هذا الكون ـ من الأحياء والجمادات وغيرهما ـ هدفاً يتوجه الى تحقيقه منذ أول خلقته ، وقد أودع فيه ما يناسب تحقيق هدفه من الآلات والمعدات ، ولا بد أن يجتهد حتى يصل الى ذلك الهدف وينالهُ، قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[١] وقال « الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى »[٢] .

وقد ذكرنا أيضاً أن هذا القانون الكلي (قانون الهداية العامة) يشمل الانسان كما يشمل غيره ، فله في حياته هدفه الخاص الذي يسعى الى تحقيقه ضمن الاطار العام ، وقد أودع فيه ما يمكّنه من الوصول اليه والحصول عليه ، ونجاحه في مسيرته الطويلة في اطار هذا القانون هو الوصول الى الكمال والسعادة، كما أن اخفاقه في هذه المسيرة هو الانزلاق في مهوى الشقاء الأبدي . وخلقته والأسرار المودعة فيه هي التي تدله على طريق الوصول الى ذلك الهدف السامي ، قال تعالى : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا *

---

(١) سورة طه : ٥١ .

(٢) سورة الأعلى : ٢ ـ ٣ .

إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » [١] .

وقال عز من قائل : « من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره » [٢] .

ب – ميزة الانسان في قطع مسالك الحياة :

تمتاز الحيوانات على غيرها من سائر الموجودات أن أعمالها علمية تصدر عن فهم وادراك ، والانسان مع أنه يشـــارك الحيوانات في هذه الناحية يمتاز عنها بما أوتي من العقل ، فـان الأعمال التي ينجزها تنبع من العقل ويميز الخير من الشر والنافع من الضار ويعملها بعد أن يتأكد من رجحان كفة المنافع فيها، ويتبع فيها ما يدركه عقله ويرى أن فيه مصلحة له ، فمـا يراه العقل نافعاً ليس فيه ما يضر يحكم بلزوم القيام به ، وما يراه ضاراً ليس فيه ما ينفع يحكم بوجوب الاجتناب عنه [٣] .

ج – كيف يكون الانسان اجتماعياً ؟

لا شك ان الانسان كان ولا يزال يعيش بصورة جمـاعية ويشكل مع الآخرين مجتمعاً مرتبطاً بعضه ببعض ويقضي حوائجه

---

(١) سورة الدهر : ٢ – ٣ .

(٢) سورة عبس : ١٩ – ٢٠ .

(٣) نريد من حكم العقل ادراك ضرورة الفعل أو الترك ، أما الدعوة الى فعل ما أو تركه إنما هو من عمل العاطفة التي يسوقها العقل اليـه ، وهو الذي يميز بين النفع والضرر . نعم لما كانت هذه الادراكات اعتبارية فالحكم فيهـا واحد لا يختلف – فليلاحظ ملاحظة دقيقة .

بالتعاون مع اخيه الانسان، ولكن هل هذا التعاون والترابط الاجتماعي هو مقتضى طبيعته الأولية وسجيته الساذجة التي تدفعه الى ان لا يعيش وحده بل يتعاون مع بني نوعه ؟..

لقد نرى ان للانسان حاجات حسب طبيعته البشرية، وله عواطف ومدارك خاصة تدفعه الى أن ينجز ما يحتاج اليه بالاجهزة التي جهز بها ، وفي هذه الحاجة لا يشعر بما يحتاج اليه الآخرون أيضاً .

يستخدم الانسان كل شيء للوصول الى مآربه وما يحتاج اليه ، فيستعين بكل بسيط ومركب لقضاء ما لا بد منه يستفيد من النباتات والأشجار الصغيرة والكبيرة، ويسيطر على الحيوانات وما تدره من الخيرات .. كل ذلك ليرفع بها ما يشعر به من النواقص الحياتية ويسد بها ما يتجدد من الخلل في عيشه.

الانسان الذي هذا دأبه ويستخدم كل ما يجده لمصالحه هل يستفيد من نتائج وجوده . هذا الانسان الذي يحترم أخاه الانسان في الظاهر هل يخلص التعاون معه ويصرف نظره عن مصالحه الشخصية للمصالح الانسانية العامة ؟..

لا ، ليس هكذا ...

بل الانسان يحس بما تطلبه الحياة منه من الحاجات المعاشية الكثيرة ، ويعلم انه وحده لا يتمكن من انجازها ، بل يعلم أنه بحاجة الى من يساعده في قضاء حوائجه من أبناء نوعه ..

ولكن من جهة أخرى يلاحظ أن الأماني التي تـدور في خلده تراود أذهان الآخرين أيضاً، فيسعون في تحقيق مصالحهم كما يسعى هو في تحقيق مصالحه .

ههنا وعندما يحس بهـذه الحقيقة يرضخ للتعاون الاجتماعي فيتنازل عن بعض منافع جهده لرفع ما يحتاج اليه بنو نوعه كما أنه يستفيد من جهة أخرى من جهد غيره لمصالحه الخاصة. وفي الحقيقة يدخل في سوق الأخذ والعطاء الاجتماعي القائم في كل الأعصار والأدوار ليأخذ منه ما يحتـاج اليه في مسيرته الحياتية ..

ان ما ينتج من الجهد الاجتماعي والعمل المشترك كأنه يختلط بعضه ببعض ، فيأخذ كل واحد من افراد المجتمع حسب وزنه الاجتماعي ، أي بمقدار قيمة العمل الذي يقوم به له حصة من تلك النتيجة يصرفها فيما يحتاج اليه من الحاجيات المعاشية .

* * *

يتضح مما سبق أن الانسان بمقتضى طبيعته في طلب مصالحه الشخصية ، يستخدم الآخرين لا ستثمارهم فيما يعود اليه بالنفع ، ولا يرضخ للتعـاون الاجتماعي الا اذا اضطر اليه اضطراراً .

ان هذه حقيقة تتجلى واضحة في دراسة حياة الأطفـال فان الطفل يريد الحصول على مـا يشتهيه جزافاً وبدون قبول

أي توجيه ، ويؤكد طلبه بالبكاء والالحاح لو لم يوفق الى الحصول عليه . وكلما تقدم في سني حيـاته يقترب الى الحياة الاجتماعية ويتعرف على ما يفرضه عليه الخضم الاجتماعي ، فيبتعد تدريجاً عن القول جزافـاً والطلب غير الوجيه ، وهكذا تتبدل به الأحوال حتى ينسى الى حدما مطاليبه الجزافية .

وشاهد آخر : اننا نرى أن انساناً ما لو أوتي قدرة فوق قدرة المجتمع المحيط به لم يلتزم بما يتطلبه منه من التعاون الاجتماعي ، بل يحاول بكل امكاناته استخدام الناس ليستثمر جهدهم بدون أي تعويض .

يشير تعالى الى التعاون الاجتماعي المذكور بقوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعض سخرياً »[١] .

الآية الكريمة تشير الى حقيقة التعاون الاجتماعي ، وأن كل واحد من أفراد البشر يفوق على غيره في جانب من الجهد المشترك، فكل فرد من المجتمع له قابلية خاصة يستثمر الآخرين بواسطتها ، فهم وحدة اجتماعية متشـابكة كالسدى واللحمة بالنسبة الى الثوب .

ويقول تعالى : « إن الإنسان لظلوم كفار »[٢] .

---

(١) سورة الزخرف : ٣٢ .
(٢) سورة ابراهيم : ٣٢ .

ويقول أيضاً : « إنه كان ظلوماً جهولاً »[1] .

الآيتان تشيران الى الغريزة الطبيعية المودعة في الانسان الذي يستخدم بواسطتها أخاه الانسان ويظلمه ويبتز منه ثمرات جهده وأتعابه .

د ــ الاختلافات وضرورة القانون :

اضطر الانسان ان يتقبل النظام الاجتماعي للاهداف التي لا يمكنه الوصول اليها بدونه ، ولذا ربما يتنازل عن بعض ما له من الحرية لضمان حريات الآخرين . ولكن لا يكفي مجرد وجود التعاون الاجتماعي مع ما نراه من الاختلافات الطبقية وعدم التوازن في الاستغلال والاستثمار وشدة الفروق الكبيرة في القوى الروحية والجسدية . وقد نرى أيضاً أن المنافع التي ينتظر أن تكون سبباً للاصلاح الفردي والاجتماعي ، أصبحت سبباً لظهور أنواع الاختلاف والمشاجرات .

من هنا يعلم الحاجة الى سلسلة من المقررات المشتركة التي يتفق أفراد المجتمع على اقرارها والتسليم لها ، فان من البديهي المسلم أن معاملة ما ــ مهما كانت صغيرة وبسيطة ــ لا بد فيها من مقررات مشتركة بين البائع والمشتري حتى تتحقق المعاملة بالشكل المرضي على ضوء تلك المقررات .

فاذن لا محيص من قوانين خاصة يسري مفعولها على كل

---

(١) سورة الأحزاب : ٧٢ .

الأفراد، ليبقى المجتمع متماسكاً لا يتسرب اليه التفكك وليحفظ بها المنافع والمصالح .

ولهـــذا نجد المشرع الأول الذي يريد هداية الانسان الى الصراط المستقيم ومـــا فيه الحق ، وضع القوانين التي تضمن سعادة الدنيا والآخرة ، ودعى الناس الى اتباعها وتحقيقها في حياتهم اليومية .

قال تعالى : « من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره »[1] .

ه – لا يكفي العقل في هداية الانسان الى القانون :

مهما كانت هذه الهداية وكيفما تحققت فهي من الفيض الرباني لأنه تعـــالى هو الذي خلق الخلق وجعل له هدفاً في مسيرته الحيــاتية تضمن سعادته ، وهو الذي أرشده الى الهداية العامة التي من ضمنها هدايته .

وواضح انه لا يسري الخطأ والتناقض في أفعــال الله عز وجل ، فلو لم ينتج سبب الهــدف الخاص به أو ينحرف عنه فليس ذلك من ذنب السبب ، بل هو مستند الى تأثير السبب أو الأسباب الأخرى التي منعت الوصول الى ذلك الهدف أو الانحراف عنه ، فـــان السبب الواحد لا يصدر منه الأمور المتضادة والمتناقضة ولا يخطأ ولم ينحرف لو لا مزاحمة الأسباب.

---

(١) سورة عبس : ١٩ – ٢٠ .

من هنا يتبين أن العقل وحده لا يمكنه هداية الانسان الى القانون ، لأنه هو الذي يدعو في بعض الاحيان الى الاختلاف وهو الذي يوقظ غريزة الاستثمار وجلب النفع بصورة مطلقة وبحرية كاملة ، وهو الذي يضطر الى أن يتقبل المجتمع المتوازن كل ذلك لما يحس به من المزاحم الذي يزاحمه .

ومن البديهي أن القوة الواحدة لا يصدر عنهـــا أثرين متناقضين — احداث الاختلافات ورفعها .

ان مايحدث من سحق الحقوق وعدم الوفاء بالوعود وما أشبه هذا من الامور ، انما يحدث من العقلاء الذين لهم الادراك الكامل ولولا العقل لما صح عدما يفعلونه ذنباً ولما صح العقاب عليه . فلو كان العقل يدل حقاً على القوانين الرافعة للاختلاف ولم يكن يتخلف عن واجبه ، لما كان يرضى بما يصدر عن الانسان ممـــا ذكرناه ، بل كان يمنع منه أشد المنع .

العامل الأصلي في التخلي عن الواجب مع وجود العقل ، هو أن العقل يضطر الى الحكم بقبول مجتمع يحافظ على التوازن ويرعى القوانين المتضمنة للعدالة الاجتماعية ، ويوجد هناك مزاحم يحد من الحرية الكاملة في العمل ، ولولا وجود المزاحم لمـــا كان العقل يحكم برعاية التعاون والعدالة الاجتماعية .

المتخلفون عن القانون هم الذين يملكون قدرة فوق القدرة المجرية لذلك القانون ، فيتخلفون عنه بلا وجل ولا خوف ، أو الذين يلجأون الى مخبـــأ يصعب الوصول اليهم لبعدهم عن القوة المجرية ، أو

كونهم في مكان حريز غفل عنهم المراقبون ، أو يتخلفون عنه لأعذار تخيلوها في أذهانهم ليظهر أعمالهم بمظاهر قانونية ، أو ينتهزون ضعف من يستثمرونه لمصالحهم.. وعلى كل حال لا يجدون من يزاحمهم أو يضايقهم، أو يزاحمهم ويضايقهم من هو أضعف منهم ولا يملك القوة الكافية لمقـــاومتهم وسحقهم . ففي هذا الموضوع ليس للعقل حكم خاص ، وهو لا يجد شيئاً من الحرية المطلقة ، ويدع غريزة الاستخدام والاستثمار بحالها .

فاذن ليس في نطاق العقل وحده أن يرشد الى قانون اجتماعي تام يضمن نفع المجتمع والفرد بشكل عادل ، لأن العقل يدفع الى رعاية مثل هذا القانون لو لم يجد مزاحماً، فاذا وجد مزاحماً يمنعه عن حريته المطلقة ، يمتنع هو بدوره عن هـذا الدفع بل ربما يحكم بخلافه .

قال تعالى: «كلا إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى»[١].

من أنواع الاستغناء، الاستغناء عن التعاون الاجتماعي ورعاية القانون في حفظ حقوق الآخرين .

و – لا تكون الهـداية الا بالوحي :

لقد علمنا من المباحث السابقة أن الانسان كبقية الموجودات له هدف ذاتي خاص يضمن سعادته ، ولما كان حسب تكوينه

---

(١) سورة العلق : ٦ – ٧ .

محتاجاً الى الحياة الاجتماعية فسعادته وشقاؤه في سعادة المجتمع وشقائه، وهو جزء واحد من الهيكل الاجتماعي ولا بد أن يجد سعادته وحسن عاقبته في سعادة المجتمع .

وعلمنا أيضاً أن الطريق الوحيد للحصول على ضالته المنشودة هو (القانون المشترك) الذي فيه السعادة الاجتماعية التي بضمنها سعادته الفردية .

وتبين أيضاً ضرورة هداية الانسان كسائر الأشياء الى ذلك الهدف الذي يشتمل على سعادته، وارشاده الى المقدمات الموصلة اليه . ومعنى هذا انه يجب أن يُدل الى القانون المشترك الذي يلزم مراعاته .

من كل هذه المقدمات نستنتج أنه لا بد للانسان من ادراك يدله على هدفه غير الادراك العقلي . والطريق الوحيد الذي نعرفه غير طريق العقل هو ما نجده في أشخاص يسمونهم بـ «الأنبياء» ومبعوثي الاله، وهو الذي يسميه الانبياء بـ «الوحي السماوي » ، ويقيمون على اثبات مدعاهم الأدلة والحجج .

قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »[١] .

ويقول: « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من

---

(١) سورة البقرة : ٢١٢ .

بعده » الى أن يقول « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » [١] .

الآية الأولى تصرح بأن لا يمكن حل الاختلافات الا من طريق الوحي والنبوة ، والآية الثانية تعتبر الوحي والنبوة الدليل الوحيد لإتمام الحجة على العباد . ولازم هاتين الآيتين أن العقل لا يكفي لأن يكون دليلاً للهداية واتمام الحجة . بمعنى أن الأنبياء لو لم يبعثوا ولم يبلغوا الأحكام الالهية ، لم يكن مجرد أن الناس عقلاء يدركون قبح الظلم والفساد موجباً للعقاب في العالم الآخر بدون بعث الأنبياء وبيان الأحكام الالهية .

ز — اشكال وجواب :

الاشكال : انكم جردتم العقل عن قابلية وضع القوانين والارشاد الى السعادة النوعية بحجة أنه لا يمكنه منع الناس عن المخالفات التي تصدر منهم ، وسلمتم القياد الى الوحي والنبوة لوضع الدستور الصالح الذي يتكفل اسعاد البشرية . ولكن نرى أن قوانين الوحي أيضاً لا تتمكن من السيطرة التامة على الانسان وضبطه ، بل نرى أنه يبتعد عن الأديان والشرائع اكثر مما يبتعد عن القوانين الوضعية ؟!.

الجواب : اراءة الطريق والهداية الى السعادة شيء ومتابعة

---

(١) سورة النساء : ١٦٥ .

الناس لتلك الهداية واتباعهم ذلـك الطريق أو عدم متابعتهم واتباعهم شيء آخر . فان الذي يقتضيه قانون الهداية العامة هو ارشاد النـــاس وهدايتهم الى وسيلة توصلهم الى دستور يضمن سعادتهم ، وليس من واجبها الالزام العملي بالاتباع .

والذي استدللنـا به على عدم كفاية العقل من التخلفـــات القانونية التي تنجم عن الحرية التامة في التصرف ، لم يكن هذا الاستدلال لأن العقل لم يحد بمض هذه الحرية في قضايا خاصة بل لأنه ليس له حكم بات في هذه الحرية المطلقة ، ولم يدع الى التعاون الاجتماعي التام واتباع القانون، لأن ما قام به من بعض التحديد والدعوة الى اتبـــاع القـانون انما كان نتيجة الضغط والضرورة المتـــأتية من المزاحم الذي يمنع عن حرية التصرف وهو علمه بأن مساوىء الحرية المطلقـــة في التصرف اكثر من محاسنها . وبديهي أن العقل لو لم يقع تحت هذا الضغط ولم يكن هناك مزاحم ومانع عن الحرية في التصرف ، لم يحد عن الحرية المطلقـة ولم يدع الى اتبـاع القـانون الذي هو بدوره تحديـد للحرية .

فاذاً لأننا لا نرى العقل دائماً يدعو الى اتباع القانون نقول بأنه وحده لا يكفي للهداية ، بل نقول بضرورة اتباع الأنبياء والرسل ، لأن الوحي دائم الدعوة الى السير على ضوء القانون الالهي الذي يراقب الانسان في كل حالاته ، فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته بدون تمييز بعض على بعض.

قال تعالى : « إن الحكم إلا لله » [1] .

وقال: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » [2] .

وقال: «إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » [3] .

وقال : « أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » [4] .

وقال : « وكان الله على كل شيء رقيباً » [5] .

ومن هنا يتبين أن الدين السماوي الذي يؤخذ من طريق الوحي هو أقدر من القوانين الوضعية في تحديد المتخلفين عن الاتباع لأن آخر ما يتشبث به القانون الوضعي أنه يجعل مراقبين على اعمال الناس الظاهرة ويضع للمجرم منهم مواد جزائية يعاقبون بها .

أما الدين فله : أولاً مراقبون على الأعمال الظاهرة كما في القانون الوضعي ، وثانياً فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تجعل كل واحد من الناس مكلفاً بمراقبة أعمال

---

(١) سورة يوسف : ٤٠ .
(٢) سورة الزلزال : ٧ – ٨ .
(٣) سورة الحج : ١٧ .
(٤) سورة البقرة : ٧٧ .
(٥) سورة الأحزاب : ٥٢ .

البقية، وثالثاً من العقائد الدينية أن الأعمال كلها تحفظ وتضبط ليوم يجمع الناس في مجمع عام ويحاسبون عليها الحساب الدقيق ورابعاً – وهو أهمها وأعظمها – الاعتقاد بأن الله تعالى محيط بالكون وما فيه وهو يعلم ويرى كل الأعمال الصادرة من الانسان.

وبالاضافة الى المواد الجزائية التي يجازى بها المجرمون في الدنيا فان من جملة العقائد الدينية أن في الآخرة أيضاً مواداً جزائية وضعت للمتخلفين عن الأوامر الالهية ولا يستثنى منها أحد أبداً .

قال تعالى: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»(١).

وقال: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»(٢).

وقال: «وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون»(٣).

وقال: «وربك على كل شيء حفيظ»(٤).

* * *

اشكال آخر: نستنتج مما مضى أن العقل لا يحكم دائماً

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة التوبة : ٧١ .

(٣) سورة الانفطار : ١٢ .

(٤) سورة سبأ : ٢١ .

بضرورة رعاية القانون واجتناب التخلف عنه ، وهذا ينـافي مـا ورد عن أئمة اهل البيت عليهم السلام في احاديث ان الله تعالى على العباد حجتين ظاهرية وباطنية هما النبي والعقل ، لأن العقل ليس له حكم قـاطع في موارد تخلف الانسان عن بعض واجباته فكيف يكون حجة عليه ؟ .

الجواب : العقل العملي يدعو دائماً الى ما ينفع والاجتناب عما يضر، ولكن الانسان المستثمر عندما يرضخ للتعاون الاجتماعي وتبادل الجهد المشترك انما يفعل ذلك اضطراراً، ومنشأ الاضطرار هو القدرة التي يملكها ويستثمر بهـا بحرية تامة جهود الآخرين او القوة التي تقع في يد من يضع القوانين. وغير ذلك من الأسباب التي فصلناها قبل هذا. في هذه الحالة لو لم تكن قوانين خاصة تحد من هذه القوة والقدرة، لا يحكم العقل في نفسه بلزوم اتباع القوانين، كما لا ينهى عن تخلف الانسان عن القوانين ونقضه لها.

ولكن لو رجعنا الى نظرية الوحي وكان منشأ الاضطرار المذكور هو الحكم الإلهي ومراقبة الأعمال والعقيدة بالثواب والعقاب والجزاء وأنها كلها بيد الله تعالى المنزه عن الغفلة والجهل والعجز. في هذا الوقت لم يكن مكان للعقل حتى يتخلى عن الحكم لعدم احسـاسه بالاضطرار ، فلا بد أن يتبع العقلُ الوحيَ في أحكامه .

قال تعالى: « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » [1].

---

(١) سورة الرعد : ٣٣ .

وقال : « ان كل نفس لما عليها حافظ » [1] .

وقال : « كل نفس بما كسبت رهينة » [2] .

ح - لا يتسرب الخطأ الى الوحي :

لقد سبق أن من سنن الكون تعليم برامج الحياة الاجتماعية من طريق الوحي ، وتبين أيضاً أن الخلقة لا تخطأ في أعمالها فالمواد الدينية السماوية التي علم الانسان بها من طريق الوحي لا يتسرب اليها الخطأ على طول الخط . قال تعالى : «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً*إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً*ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » [3] .

منهنا نعرفأن الأنبياء رسلالله يجبأن يكونوا معصومين أي لا يخطأون في تلقي الوحي من العالم العلوي وفي ابقاء ما تعلموه وفي تبليغ ما تعلموه.لأنهم عليهم السلام الواسطة فيالهداية العامةالتي يسير الخلق اليها بطبيعة خلقتهم،فلو أخطأوا فيالتلقي أو الابقاءأو التبليغأو خانوا لوسائسشيطانيةأو نفسيةأوأذنبوا ذنباً ما، فيكون نتيجة كل هذا الخطأ في سنةالكون الدالة على الهداية العامة ، وهذا لا يكون ابداً . قال تعالى : « وعلى الله

---

(١) سورة الطارق : ٤ .

(٢) سورة المدثر : ٣٨ .

(٣) سورة الجن : ٢٨ .

قصد السبيل ومنها جائر »[1] .

ط — حقيقة الوحي مخفية علينا :

ما استنتجناه من الأبحاث السابقة هو أن حياة الانسان مقدمة للوصول الى سعادته النوعية، ووظيفة الارشاد اليها على عاتق الخلقة ولا يمكن الوصول اليها من طريق العقل ، فلا بد من طريق غيرالفكر يتمكن الانسان من معرفة واجبه في الحياة بدلالته ، وهذه الدلالة هي دلالة الوحي .

ان ما يقتضيه الدليل هو هذا القدر من وجود التنبه الخاص في نوع الانسان ، ولا نقول أن هذا الالتفات والتنبه يجب أن يكون في جميع الناس ، لأنهم يختلفون كثيراً في صفاء الضمائر وخبثها ، والتنبه المذكور لا يكون الا فيمن بلغ الغاية في الصفاء والاستقامة، وهو نادر يتحقق في الأوحدي من الناس . ولذا نرى القرآن الكريم يذكر جماعة على أنهم رسل الله وانبياؤه ولا يذكر أعدادهم كاملة ، كما لم يصرح إلا باسم أربعة وعشرين منهم[2] .

---

(١) سورة النحل : ٩ .

(٢) آدم ، نوح ، هود ، صالح ، ابراهيم ، لوط ، اسماعيل ، اليسع ، ذو الكفل ، الياس ، يونس ، اسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، موسى هرون ، داود ، سليمان ، أيوب ، زكريا ، يحيى ، اسماعيل صادق الوعد عيسى ، محمد .

هؤلاء الأنبياء المذكورون في القرآن بأسمائهم ، وهناك بعض الأنبياء أشير اليهم فيه كالأسباط في سورة النساء الآية ١٦٣ ، والنبي الذي أشار على بني =

أما نحن حيث لم ندرك هذه المنزلة لم نعرف حقيقتهـــا وماهيتها، لم نعرف إلا بعض النزر القليل الذي منه القرآن الكريم وبعض الأوصاف التي علمناها بواسطة النبوة، ومع هذا لا يمكن أن نقول انها هي التي علمناها نحن، بل يمكن ان يكون هناك أوصاف وخواص وطرق أخرى لم تشرح لنا.

ي – كيفية وحي القرآن :

مختصر ما نفهمه من القرآن الكريم في كيفية وحيه هو : كان وحي هذا الكتاب السماوي بشكل التكليم، كلم الله تعالى مع الرسول الكريم وتلقى الرسول ذلك الكلام بكل وجوده (لا بأذنه فقط) .

قال تعالى : « ومـا كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما يشاء إنه علي حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي الى صراط مستقيم[1] » .

ذكروا في تكليم الله تعالى أنه ثلاثة أقسام، بقرينة الترديد الموجود في الآية الأولى وأن الوحي في القسم الأول لم ينسب الى مكان خاص وفي القسم الثالث نسب الى الرسول، والاقسام الثلاثة هي :

= اسرائيل بانتخاب لوط للملك في سورة البقرة آية ٢٤٦، والنبي المشار اليه في سورة البقرة آية ٢٥٨، والأنبياء المشار اليهم في سورة يس آية ١٤ .

(١) سورة الشورى: ٥١ – ٥٢ .

١ – التكليم الذي لم يكن فيه واسطة بين الله والبشر .

٢ – التكليم الذي يكون من وراء الحجاب ، كشجرة طور حيث كان موسى عليه السلام سمع كلام الله من تلك الناحية .

٣ – التكليم الذي يحمله الملك ويبلغه الى الانسان ، فيسمع كلام الملك وحياً وهو يحكي كلام الله .

وأما الآية الثانية فانها تدل على أن القرآن أوحي الى النبي بهذا الشكل ، ومنه يعلم أن وحي القرآن كان من طريق التكليم والخطاب الشفوي .

وقال تعالى : « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين » [١] .

وقال : « من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك »[٢] .

يستفـاد من هذه الآيات أن القرآن كله أو بعضاً منه أنزل بواسطة ملك الوحي جبرائيل وروح الأمين (وهو القسم الثالث من التكليم) كمايستفاد منها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتلقى الوحي من ذلك الملك بأعماق وجوده [٣] لا بأذنه فقط.

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٢ – ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة : ٩٧ .

(٣) بدليل أن الآيتين صرحتا بتنزيل القرآن على قلب الرسول،وفي عرف القرآن يراد من القلب النفس ، كما نرى في عـــدة من الآيات نسبت الادراك والشعور والمعصية الى القلب وهي من النفس .

وقال تعالى: « فأوحى الى عبده ما أوحى*ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على مايرى »[1] .

وفي مكان آخر عبرعن الوحي بالتلاوة في الألواح،فقال: « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة »[2] .

* * *

وقبل ان نختم البحث نود أن نقـول : في أقسام الوحي وصفاته وخواصه مبـاحث أخرى تستفاد من القرآن الكريم إلا ان الالتزام بالاختصار في فصول هذا الكتاب لم يدع المجال للتحدث عنها طويلا وبسط القول فيها .

---

(١) سورة النجم : ١٠ - ١٢ .
(٢) سورة البينة : ٢ .

الفصل الرابع

القرآن والعلوم

تعظيم القرآن مكانة العلم والحث على طلبه :

عظم القرآن الكريم مكانة العلم تعظيماً لم يسبق له مثيل في الكتب السماوية الأخرى ، ويكفي أنه نعت العصر العربي قبل الاسلام بـ « الجاهلية » ، وفيه مئات من الآيات يذكر فيها العلم والمعرفة وفي أكثرها ذكرت جلالة العلم ورفيع منزلته .

قال تعالى ممتناً على الانسان :«علم الانسان ما لم يعلم»[1].

وقـــال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[2] .

وقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[3].

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تنادي بعظمة العلم .

---

(١) سورة العلق : ٥ .

(٢) سورة المجادلة : ١١ .

(٣) سورة الزمر : ٩ .

وفي أحاديث الرسول واهل بيته عليهم السلام التالية للقرآن الكريم شواهد لا تحصر في الحث على طلب العلم وأهميته وعظيم شأنه .

العلوم التي يدعو القران الى تعلمها :

يدعوالقرآن الكريم في كثير من آياته (لم ننقلها هنا لوفرتها) الى التفكر في الآيات السماوية والنجوم المضيئة والاختلافات العجيبة في أوضاعها والنظام المتقن الذي تسير عليه .

ويدعو الى التفكرفي خلق الأرض والبحار والجبال والاودية وما في بطون الارض من العجائب واختلاف الليل والنهار وتبدل الفصول السنوية .

ويدعو الى التفكر في عجائب النبات والنظام الذي يسير عليه وفي خلق الحيوانات وآثارها وما يظهر منها في الحياة .

ويدعو الى التفكر في خلق الانسان نفسه والاسرار المودعة فيه ، بل يدعو الى التفكر في النفس واسرارها الباطنية وارتباطها بالملكوت الاعلى . كما يدعو الى السير في أقطار الارض والتفكر في آثار الماضين والفحص في احوال الشعوب والجوامع البشرية وما كان لهم من القصص والتواريخ والعبر .

بهذا الشكل الخاص يدعو الى تعلم العلوم الطبيعة والرياضية والفلسفية والأدبية وسائر العلوم التي يمكن ان يصل اليها الفكر

الانساني . يحث على تعلمهـــا لنفع الانسانية واسعاد القوافل البشرية .

نعم يدعو القرآن الى هذه العلوم شريطة ان تكون سبيلاً لمعرفة الحق والحقيقة ومرآة لمعرفة الكون التي في مقدمتهـا معرفة الله تعالى .

وأما العلم الذي يشغل الانسان عن الحق والحقيقة فهو في قاموس القرآن مرادف للجهل ، قال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » [1] .

وقال : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله» [2] .

القرآن الكريم بترغيبه الى تعلم مختلف العلوم ، يعلم دورة كاملة من المعارف الإلهية وكليات الاخلاق والفقه الاسلامي .

العلوم الخاصة بالقرآن :

يتدارس المسلمون علوماً موضوعها القرآن الكريم نفسه . ويرجع تاريخ ظهور هذه العلوم الى أوائل عصر النزول ، وقد نضجت مسائلها وبلغت المرحلة المطلوبة لطول البحث فيهـا وأصبحت بحيث وضع لها المحققون الرسائل والكتب الكثيرة.

---

(١) سورة الروم : ٧ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٣ .

وهذه العلوم بصورة عامة تنقسم الى فئتين : مـا يبحث فيه عن الألفاظ ، وما يبحث فيه عن المعاني .

العلوم البـاحثة في ألفاظ القرآن هي فنون التجويد والقراءة :

فن في كيفية تلفظ الحروف والعوارض التي تطرأهـا عند الافراد والتركيب ، كالادغـــام والابدال وأحكام الوقف والابتداء ونظائرها .

وفن في ضبط وتوجيه القراءات السبع والقراءات الثلاث الأخرى وقراءات الصحابة وشواذ القراءات الأخرى .

وفن في عدد السور والآيات والكلمات والحروف ، وضبط أعداد جميع السور والآيات والكلمات والحروف .

وفن في خصوص ضبط رسم القرآن وما فيه من الاختلاف مع رسم الخط المعروف المعمول به .

وأما العلوم التي تبحث في معاني القرآن :

ففن يبحث عن كليات المعاني كالتنزيل والتأويل والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ .

وفن يبحث في آيات الأحـكام ، وهو في الحقيقة فرع من الابحاث الفقهية .

وفن يبحث عن معاني القرآن ، وهو المعروف بـ «التفسير» .

ولقد ألف علماء الاسلام والمحققين في كل هاتيك العلوم كتباً ورسائل كثيرة .

العلوم التي كان القرآن عاملاً في ظهورها :

لا شك أن العلوم الدينية التي يتداولها المسلمون اليوم انما يرجع تاريخ نشأتها الى عصر البعثة النبوية ونزول القرآن الكريم.

لقد تداول الصحابة والتابعون هذه العلوم في القرن الأول الهجري بصورة غير منظمة بسبب المنع الذي واجه تدوين العلم بكل فروعه، وكانت طريقة التلقي والمدارسة هي الحفظ والأخذ الشفوي، الا مدونات قليلة جداً في الفقه والتفسير والحديث.

وفي أوائل القرن الثاني الهجري عندما ارتفع المنع [١] بدأ المسلمون بتدوين الحديث أولاً، ثم وضعوا المؤلفات في بقية فروع العلم وأوجدوا الأنظمة الخاصة للتأليف والتصنيف فكانت نتيجة المساعي : فن الحديث، وعلم الرجال والدراية وفن أصول الفقه، وعلم الحديث، وعلم الكلام، وغيرها .

وحتى الفلسفة المنقولة من اليونانية الى العربية في بداية أمرها والتي بقيت على شكلها اليوناني لفترة غير قصيرة، فان البيئة أثرت فيها مادة وصورة وتحولت من شكلها البدائي الى شكل يغايره كل المغايرة . وأحسن شاهد لذلك المسائل الفلسفية المتداولة بين المسلمين اليوم، فانك لا

---

(١) ارتفع المنع بإجماع المؤرخين على يد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بين سنتي ٩٩ - ١٠١ .

ترى مسألة فلسفية في المعارف الالهية إلا ويمكن أن تجد متنها وبراهينها وأدلتها المقامة لها في طيات الآيات القرآنية والأحاديث المروية .

ويمكن اعادة هـذا القول في العلوم الأدبية أيضاً ، فان أمثال الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع واللغة وفقهها والاشتقاق بالرغم من أنها تشمل اللغةالعربية بصورة عامة، إلا أن الذي دفع الناس الى مدارستها والبحث فيها والفحص عنها انما هو كلام الله المجيد الذي له الحلاوة التامة وحسن الأسلوب في التعبير والاعجـاز في الفصاحة والبلاغة ، فانجذبت اليه القلوب وكان السبب في السير وراء معرفة خصائصه والفحص عن الشواهد والنظائر له ومعرفة وجوه الفصاحة والبلاغة فيه والأسرار الكامنة تحت جمله وألفاظه ، وبالتالي لهذه العوامل وجدت العلوم اللسانية التي ذكرناها .

كان ابن عباس من كبار مفسري الصحابة ، وكان يستشهد في التفسير بالشعر العربي ، وكان يـأمر بجمع الشعر وحفظه ويقول : الشعر ديوان العرب .

بمثـل هـذه العناية والاهتمام ضبط النثر العربي وشعره وبلغت الحالة الى ان العـالم الشيعي خليل بن احمد الفراهيدي البصري ألف في اللغة كتاب العين ووضع علم العروض لمعرفة الأوزان الشعرية . وهكذا وضع العلمـاء الآخرون في هذين العلمين أيضاً المؤلفات القيمة .

وعلم التـاريخ أيضاً من مشتقات علم الحديث ، ففي أوله كان مجموعة من قصص الأنبياء والأمم ، وبدأ من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم أضيف اليه تاريخ صدر الاسلام وفيما بعد أصبح بصورة تاريخ عام للعالم وكتب المؤرخون امثال الطبري والمسعودي واليعقوبي والواقدي ومؤلفاتهم التاريخية .

ويمكن القـــول بصراحة بأن القرآن هو الدافع الأول لاشتغـال المسلمين بالعلوم العقلية من طبيعية ورياضية بشكل نقل من اللغـــات الأخرى في البداية ثم استقلال وابتكار في مسائلها .

ترجمت العلوم بتشجيع من الخلافة في ذلك اليوم من اليونانية والسريانية والهندية الى العربية ، ثم وضعت في متناول أيدي المسلمين بمختلف جاليـاتهم ، وأخذت دائرة التحقيقات تتسع حتى أصبحت بشكل عميق ودقيق جداً .

إن مدينة الاسلام التي شملت قطعة عظيمة من المعمورة بعد رحلة الرسول وكان لها الحكم المطلق والتي امتدت حتى هـذا اليوم الذي يعيش فيه اكثر من ستمائة مليون مسلم، هذه المدينة هي أثر واحد من آثار القرآن الكريم (مع العلم أننا نحن الشيعة نعارض دائماً سياسة الخلفـــاء والملوك حيث تساهلوا في نشر التعاليم الدينية وتطبيق قوانين الاسلام تطبيقاً كاملاً ، مع هذا نعتقد أن ضوء الاسلام المنتشر بهذا المقدار في ارجاء المعمورة انما هو اشراقة من اشراقات القرآن العظيم) .

من الواضح البديهي أن هذا التحول العظيم الذي هو حلقة مهمة من حلقات حوادث العالم، سيؤثر تأثيراً مباشراً في الحلقات المستقبلة . ومن هنا يأتي الاعتقـــاد بأن احدى علل التحول العلمي الهائل الذي نشاهده اليوم هي من تأثير القرآن الكريم .

ان تجلية هذا الموضوع بشكل أوضح وأعمق يحتـــاج الى دراسة واسعة ، ولكن طريقة الاختصار التي التزمنا بهـا في هذا الكتاب لا تعطينا الفرصة الكاملة لهذه الدراسة ... فالى الكتب المعنية بذلك ...

الفصل الخامس

ترتيب نزول القرآن وانتشاره

كيف نزلت الآيات ؟

لم تنزل سور القرآن وآياته دفعة واحـدة . وبالاضافة الى اتضاح الموضوع من التــاريخ الذي يشهد بالنزول طيلة ثلاث وعشرين سنة، فان الآيات نفسها شاهدة على ذلك، قال تعالى: «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»[1].

وفي القرآن النـاسخ والمنسوخ بلا شك ، وفيه أيضاً آيات تدل على قصص و أحداث لا يمكن جمعها في زمن واحد لنذهب الى وحدة زمن النزول .

والآيات والسور القرآنية لم تنزل قطعاً على الترتيب الذي نقرأه في القرآن اليوم، بأن تكون أولاً سورة الفاتحة ثم سورة البقرة ثم سورة آل عمران ثم سورة النساء وهكذا. .لأنه بالاضافة الى الشواهد

---

(١) سورة الإسراء : ١٠٦ .

التاريخية على ذلك فان مضامين الآيات نفسها تشهد عليه ، لأن بعض السور والآيات لهـــا مضامين تناسب أوائل زمن البعثة وهي واقعة في أواخر القرآن كسورة العلق والنون ، وبعضها تناسب ما بعد الهجرة وأواخر عصر الرسول وهي واقعة في أواخر القرآن كسورة البقرة وآل عمــران والنساء والانفـال والتوبة .

إن اختلاف مضامين السور والآيات وارتباطها الكامــل بالأحــداث والحوادث التي وقعت طيلة ايام الدعوة ، يفرض علينا القول بأن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة عصر الدعوة النبوية .

فمثلاً الآيات التي تدعو المشركين الى الاسلام ونبذ عبـادة الأوثان تناسب مع عصر قبل هجرة الرسول من مكة حيث ابتلي الرسول بالوثنيين . وأما آيات القتال وآيات الأحكام فقد نزلت في المدينة المنورة حيث أخـذ الاسلام ينتشر وأصبحت المدينة تشكل حكومة اسلامية كبرى .

بعد البحث السابق :

بناءً على البحث السابق تنقسم الآيات والسور القرآنية الى أقسام حسب اختلاف محل النزول وزمانه وأسبابه وشروطه وهي :

١ – بعض السور والآيات مكية وبعضها مدنية ، فان ما

نزل قبل هجرة الرسول من مكة يعتبر مكياً ، وهو القسم الاكبر من السور وعلى الأخص السور القصيرة ، وما نزل بعد هجرة الرسول يسمى مدنياً ولو كان نزولها خارج المدينة وحتى لو كان في مكة نفسها .

٢ – بعض السور والآيات نزلت في السفر وبعضها في الحضر ، وهكذا تنقسم الى ما نزل بالليل أو بالنهار ، أو ما نزل في الحرب أو في السلم ، أو ما نزل في الأرض أو في السماء ، أو ما نزل بين الناس أو في حال الانفراد . وسنبحث عن فائدة معرفة هذه الأقسام في فصل « أسباب النزول » .

٣ – نزلت بعض السور مكرراً كما يقال في سورة الفاتحة حيث نزلت في مكة والمدينة ، كما أن بعض الآيات نزلت مكرراً كآية « فبأي آلاء ربكما تكذبان » حيث كررت في سورة الرحمن ثلاثون مرة ، وآية « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » حيث كررت في سورة الشعراء ثمان مرات . وقد تكررت بعض الآيات في اكثر من سورة واحدة كآية « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » حيث كررت في ست سور مختلفة .

وهكذا نجد جملة خاصة هي آية كاملة في مكان وجزء آية في مكان آخر ، نحو « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » فحصي في أول سورة آل عمران آية كاملة ، وفي سورة البقرة جزء من آية الكرسي .

ولكن مع هذا كله أكثر السور والآيات نزلت مرة واحدة فقط .

وعلة هذا الاختلاف هي اختلاف ما يقتضيه البيان ، ففي موضع يقتضى تكرار الجملة للتنبيه مثلا ، وفي موضع لا يقتضي ذلك .

ويشبه هذا الاختلاف الاختلاف الموجود بين السور والآيات في الطول والقصر ، فالى جانب سورة الكوثر أقصر السور نجد سورة البقرة أطولها ، كما نرى آية « مدهامتان » أقصر آية الى جانب آية الدين – وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة – أطول آية في القران .

كل هذه الاختلافات لمقتضيات بيانية ، وربما نجدها في آيتين متصلتين أيضاً ، كالآيتين ٢٠ و ٢١ من سورة المدثر مثلاً ، فان الأولى جملة واحدة والثانية أكثر من خمس عشرة جملة .

ومن وجوه الاختلاف أيضاً ما نجده عند المقارنة بين السور والآيات في الايجاز والاطناب ، كما يتبين ذلك عند مقابلة أمثال سورة الفجر وسورة الليل بأمثال سورة البقرة والمائدة ، والغالب في السور المكية الايجاز كما أن الغالب في السور المدنية الاطناب.

ومن هذا القبيل ما يقال بأن اول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو سورة العلق او خمس آيات الأولى منها بالقياس الى آخر ما نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو قوله

تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[1] .

أسباب النزول :

لقد قلنا ان كثيراً من السور والآيات ترتبط بالحوادث والاحداث التي وقعت أيام الدعوة كسورة البقرة والحشر العاديات[2]، او نزلت لحاجات ضرورية من الأحكام والقوانين الاسلامية كسورة النساء والأنفال والطلاق وأشباهها[3] .

هذه القضايا التي سببت نزول السور أو الآية هي المسماة بـ «أسباب النزول» ، ومعرفتها تساعد الى حد كبير في معرفة الآية المباركة وما فيها من المعاني والاسرار .

ومن هنا اهتم جماعة من محدثي الصحابة والتابعين بأحاديث أسباب النزول ، فنقلوا احاديث كثيرة من هذا القبيل .

هذه الأحاديث من طرق أهل السنة كثيرة جداً ربما تبلغ عدة آلاف حديثاً ، وأما من طريق الشيعة فهي قليلة وربما لا

---

(١) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٢) نزلت سورة البقرة في السنة الأولى من الهجرة ، كثير من آياتها في تقريع اليهود الذين كانوا يقفون دون التقدم الإسلامي، وبقية آياتها في تشريع بعض الأحكام كتغيير القبلة وتشريع الصوم والحج وغيرها . وسورة الحشر نزلت في خصوص جلاء يهود بني النضير ، وسورة العاديات نزلت في خصوص أعراب وادي يابس أو غيرهم .

(٣) سورة النساء تتحدث عن أحكام الزواج وإرث المرأة ، وسورة الأنفال تتحدث عن غنائم الحرب والأسراء ، وسورة الطلاق تتحدث عن خصوص أحكام الطلاق .

تبلغ الا عدة مئات . ويلاحظ أن كل هـذه الأحاديث ليست مسندة وصحيحة بل فيها المرسل الضعيف أيضاً، والنظر والتأمل فيها يدعو الانسان الى الشك فيها ، لأنها :

أولا ـ سياق كثير منها يدل على أن الراوي لا ينقل السبب من طريق المشافهة والتحمل والحفظ، بل ينقل قصة ما ثم يحمل الآيات عليها حملاً ويربطها بها ربطاً، وفي الحقيقة سبب النزول الذي يذكره انما هو سبب اجتهادي نظري وليس بسبب شاهده بالعيان وضبطه بحدوده الدقيقة .

والشاهد على ما نقول التناقض الكثير في هـذه الأحاديث ونعني به أن الآية الواحدة يذكر فيها عدة أحاديث في أسباب النزول يناقض بعضها بعضاً ولا يمكن جمعها بشكل من الأشكال حتى في بعض الآيات يذكر عن شخص واحد - كابن عباس مثلاً - أسباباً للنزول لا يمكن الجمع بينها .

إن ورود هذه الأحاديث المتناقضة المتهافتة لا يمكن حمله إلا على أحد محملين : إما أن نقول ان اسباب النزول هذه نظرية اجتهادية وليست بنقلية وكان كل محدث يحاول أن يربط بين قصة ما والآية ربطاً لا حقيقة له في الخارج ، أو نقول بأن هذه الأحاديث كلها أو جلها مدسوسة ليس لها ظل من الواقع .

مع ورود هذه الاحتمالات تسقط أحاديث أسباب النزول عن الاعتبار ، ولهذا لا يمكن الاطمئنان حتى على الأحاديث التي أسانيدها صحيحة ، لأن صحة السند يرفع الكذب عن

رجال السند أو عدم تضعيفهم ، ولكن احتمال الدس أو أعمال النظر الخاص يبقى بحاله .

وثانياً – ثبت تاريخياً ان الخلافة كانت تمنع عن كتابة الحديث ، وكلما كانوا يعثرون على ورقة أو لوحة كتب فيها الحديث كانت تحرق ، وبقي هذا المنع الى آخر القرن الأول الهجري ، أي لمدة تسعين سنة تقريباً .

هذا المنع فتح للرواة طريق النقل بالمعنى ، وكان الحديث يمنى بتغييرات كلما حدث راو الى راو آخر حتى أصبحت الأحاديث تروى على غير وجوهها . وهذا واضح بين لمن راجع قصة ورد فيها أحاديث طرق مختلفة ، فان الانسان ربما يشاهد حديثين في قصة واحدة لا يمكن اجتماعها في نقطة من النقاط وشيوع النقل بالمعنى بهذا الشكل المريب هو أحد الأشياء التي تسبب عدم الوزن لأحاديث أسباب النزول وقلة اعتبارها .

ان شيوع الدس في الحديث والكذب على الرسول ودخول الاسرائيليات في الروايات وما صنعه المنافقون وذوو الاغراض بالاضافة الى النقل بالمعنى وما قيل في الوجه الاول .. كل هذا قلل من قيمة أحاديث أسباب النزول وأسقطها عن الاعتبار .

المنهج الذي لا بد أن يتخذ في أسباب النزول :

لقد ذكرنا في الفصول السابقة أن الحديث يحتاج الى التأييد القرآني ، وعلى هذا يجب عرض الحديث على القرآن كما ورد في

أحاديث عن الرسول واهل بيته عليهم السلام .

وعليه سبب النزول الوارد حول آية من الآيات لو لم يكن متواتراً أو قطعي الصدور يجب عرضه على القرآن ، مما وافقه مضمونه مضمون الآية يؤخذ به ويعمل عليه . ومعنى هذا أن الحديث هو الذي يعرض دائماً على القرآن لا القرآن يعرض على الحديث.

وهذه الطريقة تسقط اكثر أحاديث أسباب النزول عن الاعتبار ، الا أن الباقي منها يكسب كل الاعتبار والوثوق .

وليعلم أن الأهداف القرآنية العالية التي هي المعارف العالمية الدائمة (كما سنفصل ذلك فيما سيأتي) لا تحتاج كثيراً أو لا تحتاج أبداً الى أسباب النزول .

ترتيب نزول السور :

لا شك ان السور والآيات القرآنية لم تثبت في القرآن على ترتيب نزولها على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وعلماء الاسلام الماضون وخاصة أهل السنة منهم كانوا يعتمدون في ترتيب السور والآيات على الحديث، ومن الأحاديث المذكورة بهذا الشأن حديث مروي عن ابن عباس حيث يقول [١] .

كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء ، وكان أول ما نزل من القرآن :

---

(١) الاتقان ١/ ١٠ ، نقلاً عن فضائل القرآن لابن ضريس .

١ – اقرأ باسم ربك
٢ – ثم «ن»
٣ – ثم أيها المزمل
٤ – ثم يا أيها المدثر
٥ – ثم تبت يدا أبى لهب
٦ – ثم اذا الشمس كورت
٧ – ثم سبح اسم ربك الأعلى
٨ – ثم والليل اذا يغشى
٩ – ثم والفجر
١٠ – ثم والضحى
١١ – ثم ألم نشرح
١٢ – ثم والعصر
١٣ – ثم والعاديات
١٤ – ثم انا أعطيناك
١٥ – ثم ألهاكم التكاثر
١٦ – ثم أرايت الذي يكذب
١٧ – ثم قل يا أيها الكافرون
١٨ – ثم ألم تر كيف فعل ربك
١٩ – ثم قل أعوذ برب الفلق
٢٠ – ثم قل أعوذ برب الناس
٢١ – ثم قل هو الله أحد
٢٢ – ثم والنجم
٢٣ – ثم عبس
٢٤ – ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر
٢٥ – ثم والشمس وضحاها
٢٦ – ثم والسماء ذات البروج
٢٧ – ثم والتين
٢٨ – ثم لأيلاف قريش
٢٩ – ثم القارعة
٣٠ – ثم لأقسم بيوم القيامة
٣١ – ثم ويل لكل همزة لمزة
٣٢ – ثم والمرسلات
٣٣ – ثم «ق»
٣٤ – ثم لا أقسم بهذا البلد
٣٥ – ثم والسماء والطارق
٣٦ – ثم اقتربت الساعة

٣٧ – ثم (ص)
٣٨ – ثم الأعراف
٣٩ – ثم قل أوحي
٤٠ – ثم يس
٤١ – ثم الفرقان
٤٢ – ثم الملائكة
٤٣ – ثم كهيعص
٤٤ – ثم طه
٤٥ – ثم الواقعة
٤٦ – ثم طسم الشعراء
٤٧ – ثم طس
٤٨ – ثم القصص
٤٩ – ثم بني اسرائيل
٥٠ – ثم يونس
٥١ – ثم هود
٥٢ – ثم يوسف
٥٣ – ثم الحجر
٥٤ – ثم الانعام
٥٥ – ثم الصافات
٥٦ – ثم لقمان
٥٧ – ثم سبأ
٥٨ – ثم الزمر
٥٩ – ثم حم المؤمن
٦٠ – ثم حم السجدة
٦١ – ثم حمعق
٦٢ – ثم حم الزخرف
٦٣ – ثم الدخان
٦٤ – ثم الجاثية
٦٥ – ثم الأحقاف
٦٦ – ثم الذاريات
٦٧ – ثم الغاشية
٦٨ – ثم الكهف
٦٩ – ثم النحل
٧٠ – ثم إنا أرسلنا نوحاً
٧١ – ثم ابراهيم
٧٢ – ثم الأنبياء
٧٣ – ثم المؤمنين
٧٤ – ثم تنزيل السجدة
٧٥ – ثم الطور
٧٦ – ثم تبارك – الملك

٧٧ – ثم الحاقة
٧٨ – ثم سأل
٧٩ – ثم عم يتساءلون
٨٠ – ثم النازعات
٨١ – ثم اذا السماء انفطرت
٨٢ – ثم اذا السماء انشقت
٨٣ – ثم الروم
٨٤ – ثم العنكبوت
٨٥ – ثم ويل المطففين

قال ابن عباس : فهذا مـــا أنزل الله بمكة ، ثم أنزل بالمدينة :

٨٦ – سورة البقرة
٨٧ – ثم الانفال
٨٨ – ثم آل عمران
٨٩ – ثم الأحزاب
٩٠ – ثم الممتحنة
٩١ – ثم النساء
٩٢ – ثم اذا زلزلت
٩٣ – ثم الحديد
٩٤ – ثم القتال
٩٥ – ثم الرعد
٩٦ – ثم الرحمن
٩٧ – ثم الانسان
٩٨ – ثم الطلاق
٩٩ – ثم لم يكن
١٠٠ – ثم الحشر
١٠١ – ثم اذا جاء نصر الله
١٠٢ – ثم النور
١٠٣ – ثم الحج
١٠٤ – ثم المنافقون
١٠٥ – ثم المجادلة
١٠٦ – ثم الحجرات
١٠٧ – ثم التحريم
١٠٨ – ثم الجمعة
١٠٩ – ثم التغابن
١١٠ – ثم الصف
١١١ – ثم الفتح
١١٢ – ثم المائدة
١١٣ – ثم البراءة

نظرة في الحديث والاحاديث الاخرى :

الحديث المنقول عن ابن‌عباس عدد السور(١١٣) سورة كما رأيت ولم يذكر سورة الفاتحة .

وفي حديث رواه البيهقي[١] عن‌عكرمة عدد السور (١١١) سورة ولم يذكر سورة الفاتحة والأعراف والشورى ، كما أنه روى حديثاً آخر عن ابن عباس ذكر فيه (١١٤) سورة ، الا ان الروايتين : أولاً اعتبرتا سورة المطففين من السور المدنية بخلاف الحديث السابق الذي ذكر سورة المطففين أنها مكية وثانياً تغاير ترتيب السور فيها مع ما ذكرنا سابقاً .

وروي حديث آخر عن علي بن ابي طلحة [٢] يقول فيه: نزلت بالمدينة سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانفال والتوبة والحج والنور والأحزاب والذين كفروا والفتح والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والحوريين يريدالصف والتغابن ويا أيها النبي إذا طلقتم النساء ويا أيها النبي لم تحرم والفجر والليل وإنا أنزلناه في ليلة القدر ولم يكن واذا زلزلت واذا جاء نصر الله ، وسائر ذلك بمكة .

الظاهر أن هذا الحديث يريد التفرقة والتمييز بين السور المكية والمدنية من دون نظر الى ترتيب النزول ، لأن سورتي

---

(١) الاتقان ١٠/١ .
(٢) المصدر السابق .

المائدة والتوبة بلا شك تقعان في الترتيب بعد مـا هو مذكور بكثير، وقد عدد سورة الفجر والليل والقدر من السور المدنية بينما الأحاديث السابقة عدتها من السور المكية، كما أنه جعل سورة الرعد والرحمن والانسان والجمعة والحجرات مكية وهي مدنية في الاحاديث السابقة.

وفي حديث عن قتادة[1] انه قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمـــائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والاحزاب ومحمـــد والفتح والحجرات والحديد والرحمن والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبي لم تحرم الى رأس العشر. واذا زلزلت واذا جاء نصر الله، وسائر القرآن نزل بمكة.

هذا الحديث يخالف الأحاديث السابقة وخاصة ـ حديث آخر مروي عن قتادة نفسه ـ في سورة المطففين والانسان ولم يكن.

والذي يمكن أن يقال في هذه الاحـــاديث أنه لا يمكن الاعتماد عليها بوجه من الوجوه، لانه ليس لها قيمة الاحاديث الدينية ولا قيمة النقول التاريخية. أما أنها ليس لها قيمة الاحاديث الدينية فلأنهـــا لم يتصل سندها بالنبي صلى الله عليه واله وسلم ولم يعلم ان ابن عباس مثلاً تعلم الترتيب من النبي أو من انسان آخر أو هو اجتهادي نظري. وأما من الوجهة التاريخية فلأن ابن عباس مثلاً ادرك مدة قصيرة من حيـاة الرسول ولم يكن

---

(١) الاتقان ١/١١.

معه دائماً حتى يشـاهد كيفية نزول كل السور والآيات ، فلو لم يكن اجتهد في هذا الترتيب فلا بد أنه نقله من انسان آخر لم نعلم شخصه ، فهـذا نقل تاريخي لم يذكر فيه المصدر فليس له قيمة في سوق التحقيق .

وعلى فرض صحة هذه الأحاديث واستقامته فهي من قبيل الخبر الواحد ، وقد ثبت في أصول الفقه ان الخبر الواحد غير حجة في ما عدا الفقه .

فـاذاً الطريقة الوحيدة لمعرفة المكي والمدني هو التدبر في الآيات والنظر في مدى موافقتها لما جرى قبل الهجرة أو بعدها هذه الطريقة مفيدة الى حد ما للتمييز بين المكي والمدني، فان مضامين سورة الانسان والعاديات والمطففين تشهد بأنها مدنية بالرغم من أنها ذكرت في بعض الأحاديث على انها مكية .

جمع القرآن في مصحف :

(أ) القرآن قبل الرحلة :

كان القرآن الكريم ينزل آية آية وسورة سورة ، ولما كان يتمتع بالفصاحة الخارقة والبلاغة الفائقة كان ينتشر بسرعة هائلة وكان العرب عشاق الفصاحة والبلاغة ينجذبون اليه فيأتون من بلاد بعيدة لا ستماع بعض آياتـه من شفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وعظماء مكة وأهل النفوذ من قريش كانوا عباد الأوثان

وألد أعداء الدعوة الاسلامية ، وكانت محاولاتهم شديدة في ابعاد الناس عن النبي وعدم اعطاء الفرصة لاستماع القرآن بحجة أنه سحر يلقى عليهم .

ومع هذا كله كانوا يأتون في الليالي الظلماء خفية الى قرب بيت النبي ويستمعون الى الآيات التي كان يقرأها صلى الله عليه وآله وسلم.

وجدّ المسلمون أيضاً في حفظ القرآن وضبطه ، لأن النبي أمر بتعليم القرآن إياهم [١] ، ولأنهم كانوا يعتقدون أنه كلام الله تعالى ، وهو السند الأول لعقائدهم الدينية ، ويفرض عليهم في الصلاة قراءة سورة الفاتحة ومقدار آخر من القرآن .

ولما هاجر النبي الى المدينة وانتظمت أمور المسلمين أمر الرسول جماعة من أصحابه بالاهتمام في شأن القرآن وتعليمه وتعلمه ونشر الأحكام الدينية وما ينزل عليه من الوحي ، فكانت تسجل هذه يوماً فيوماً حتى لا تضيع ، وأعفي هؤلاء عن الحضور في جبهات الجهاد كما هو صريح القرآن الكريم [٢] .

ونظراً الى ان الصحابة المهاجرين من مكة الى المدينة كان اكثرهم استفاد الرسول من الأسراء اليهود وأمر كل أسير أن يعلم عدداً من أصحابه ، وبهذه الطريقة وجد في الصحابة جماعة متعلمون يعرفون الكتابة والقراءة .

---

(١) سورة النحل : ٤٤ ، وآيات كثيرة أخرى .

(٢) سورة التوبة : ١٢٢ .

ومن هؤلاء الجماعة اشتغل أناس بقراءة القرآن وحفظه وضبط سوره وآياته ، وهم الذين عرفوا فيما بعد بـ « القراء » ومنهم استشهد في واقعة بئر معونة أربعون أو سبعون شخصاً [1] .

وكان كلما نزل من القرآن أو ينزل تدريجياً ، يكتب في الألواح او اكتاف الشاة أو جريد النخل ويحفظ .

والذي لا يقبل الشك ولا يمكن انكاره هو أن اكثر السور القرآنية كانت منتشرة دائرة على السنة الصحابة قبل رحلة الرسول ، وقد وردت أسماء كثير من السور في أحاديث جمة منقولة من طرق الشيعة والسنة تصف كيفية تبليغ النبي الدعوة الاسلامية والصلوات التي كان يصليها وسيرته في قراءة القرآن.

وهكذا نجد في الأحاديث أسماء خاصة قبل رحلة الرسول لطائفة طائفة من السور كالطوال والمئين والمثاني والمفصلات .

بعد رحلة الرسول :

بعدما ارتحل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الرفيق الأعلى جلس علي عليه السلام – الذي كان بنص من النبي أعلم الناس بالقرآن – في بيته [2] حتى جمع القرآن في مصحف على ترتيب

---

(١) الاتقان ١/٧٢ .

(٢) الاتقان ١/٥٩ .

النزول ، ولم يمض ستة أشهر من وفاة الرسول الا كان علي قد فرغ من عمل الجمع وحمله للناس على بعير [1] .

وبعد الرحلة بسنة واحدة [2] حدثت حرب اليمامة التي قتل فيها سبعون من القراء ، ففكرت الخلافة في جمع السور والآيات في مصحف خوفاً من حدوث حرب أخرى وفناء القراء وذهاب القرآن على أثر موتهم .

أمرت الخلافة جماعة من قراء الصحابة تحت قيادة زيد بن ثابت الصحابي بالجمع ، فجمعوا القرآن من الالواح وجريد النخل والاكتاف التي كانت في بيت النبي بخطوط كتاب الوحي والتي كانت عند بقية الصحابة . وعندما كملت عمليه الجمع استنسخوا عدة من النسخ وأرسلت الى الأقطار الاسلامية .

وبعد مدة علم الخليفة الثالث [3] أن القرآن مهدد بالتحريف والتبديل على اثر المساهلة في أمر الاستنساخ والضبط ، فأمر بـأخذ مصحف حفصة – وهي اول نسخة من نسخ الخليفة الأول – وأمر خمسة من الصحابة منهم زيد بن ثابت أن يستنسخوا من ذلك المصحف ، كما أمر أن تجمع كل النسخ الموجودة في الامصـار وترسل الى المدينة ، وكانت تحرق عندما تصل نسخة من تلك النسخ .

---

(١) المصحف للسجستاني .
(٢) الاتقان ١/٥٩ – ٦٠ .
(٣) المصدر السابق ١/٦١ .

كتبوا خمس نسخ من القرآن ، فجعلوا نسخة منها في المدينة وأرسلوا نسخة الى مكة ونسخة الى الشام ونسخة الى الكوفة ونسخة الى البصرة . ويقال ان غير هذه النسخ الخمس أرسلت نسخة أيضاً الى اليمن ونسخة الى البحرين . وهذه النسخة هي التي تعرف بـ « مصحف الامام »، وجميع نسخ القرآن مكتوبة على احدى هذه النسخ .

الاختلاف الموجود [١] بين هذه النسخ والمصحف الأول أن في المصحف الأول كانت سورة البراءة بين المئين وسورة الأنفال في المثاني ، وفي مصحف الامام وضعت سورة الأنفال والبراءة في مكان واحد بين سورة الأعراف وسورة يونس .

اهتمام المسلمين بالقرآن :

لقد قلنا ان الآيات والسور كانت موزعة عند المسلمين قبل الجمع الأول والثاني ، وكانوا يهتمون بشأنها بالغ الاهتمام . وبالاضافة الى هذا كان جماعة من الصحابة والتابعين من القراء وجمع القرآن تم بحضور هؤلاء وهم كلهم قد قبلوا المصحف الذي وضع تحت تصرفهم واستنسخوا بلا رد ولا ايراد .

وحتى في الجمع الثاني (جمع عثمان) ارادوا حذف الواو من آية « والذين يكنزون الذهب والفضة » [٢] فمنعوهم من هذا

---

(١) الاتقان ٦٢/١ .

(٢) سورة التوبة : ٣٤ .

وهددهم أُبي بن كعب الصحابي باعمال السيف لو لم يثبتوا الواو فاثبتوها [١] .

قرأ الخليفة الثاني [٢] في أيام خلافته جملة « والذين اتبعوهم باحسان » من آية «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان» [٣] بدون واوالعطف فخاصموه حتى ألزموه بقراءتها مع الواو .

والامام امير المؤمنين عليه السلام بالرغم من أنه كان اول من جمع القرآن على ترتيب النزول وردوا جمعه ولم يشركوه في الجمع الاول والثاني، مع هذا لم يبد أي مخالفة أو معارضة وقبل المصحف ولم يقل شيئاً عن هذا الموضوع حتى في أيام خلافته .

وهكذا أئمة اهل البيت عليهم السلام أولاد علي وخلفاؤه لم يخالفوا في الموضوع ولم يقولوا شيئاً حتى لأخص أصحابهم، بل كانوا دائماً يستشهدون بما في هذا المصحف ويأمرون الشيعة بالقراءة كما يقرأ الناس [٤] .

ويمكننا القول بجرأة أن سكوت علي عليه السلام الذي كان مصحفه يخالف في الترتيب المصحف المنتشر ، كان لأن

---

(١) الدر المنثور ٣/٢٣٢ .
(٢) الدر المنثور ٣/٢٦٩ .
(٣) سورة التوبة : ١٠٠ .
(٤) الوافي ٥/٢٧٣ .

ترتيب النزول لم يكن ذا أهمية في تفسير القرآن بالقرآن الذي يهتم به أهل البيت عليهم السلام ، بل المهم فيه هو ملاحظة مجموع الآيات ومقارنة بعضها ببعض ، لأن القرآن الذي هو الكتاب الدائم لكل الأزمان والعصور والأقوام والشعوب لا يمكن حصر مقاصده في خصوصية زمنية أو مكانية أو حوادث النزول وأشباهها .

نعم ، بمعرفة هذه الخصوصيات يمكن استفادة بعض الفوائد كالعلم بتاريخ ظهور بعض المعارف والأحكام والقصص التي كانت مقارنة لنزول الآيات ، وهكذا معرفة كيفية تقدم الدعوة الاسلامية في ثلاث وعشرين سنة وأمثالها .. ولكن المحافظة على الوحدة الاسلامية التي كانت الهدف الدائم لأهل البيت هي أهم من هذه الفوائد الجزئية .

القرآن مصون من التحريف :

تاريخ القرآن واضح بين من حين نزوله حتى هذا اليوم كانت الآيات والسور دائرة على ألسنة المسلمين يتداولونها بينهم. وكلنا نعلم أن هذا القرآن الذي بأيدينا اليوم هو القرآن الذي نزل تدريجاً على الرسول قبل أربعة عشر قرناً .

فاذاً لا يحتاج القرآن في ثبوته واعتباره الى التاريخ مع وضوح تاريخه ، لأن الكتاب الذي يدعي أنه كلام الله تعالى

ويستدل على دعواه بآياته ويتحدى الجن والانس على أن يأتوا بمثله ، لا يمكن لاثباته ونفي التغيير والتحريف عنه التثبت بالأدلة والشواهد أو تأييد شخص أو فئة لاثبات مدعاه .

نعم ، أوضح دليل على أن القرآن الذي هو بأيدينا اليوم هو القرآن الذي نزل على النبي الكريم ولم يطرأ عليه اي تحريف أو تغيير ، أن الأوصاف التي ذكرها القرآن لنفسه موجودة في اليوم كما كان في السابق .

يقول القرآن : انني نور وهداية وأرشد الناس الى الحق والحقيقة .

ويقول : انني أبين ما يحتاج اليه الانسان ويتفق مع فطرته السليمة .

ويقول : انني كلام الله تعالى ، ولو لم تصدقوا فليجتمع الانس والجن للاتيان بمثله ، أو ليأتوا بمثل محمد الامي الذي لم يدرس طيلة حياته وليقل لهم مثل ما نطق به محمد ، أو انظروا في هل تجدون اختلافاً في اسلوبي أو معارفي أو أحكامي .

إن هذه الاوصاف والمميزات باقية في القرآن الكريم .

أما الارشاد الى الحق والحقيقة ففي القرآن الذي بأيدينا بيان تام للاسرار الكونية بأدق البراهين العقلية ، وهو الملجأ الوحيد لدستور الحياة السعيدة الهانئة ، ويدعو الانسان بمنتهى الدقة الى الايمان طالباً خيره وحسن مآله .

وأما بيان ما يحتاج اليه الانسان في حياته فان القرآن

بنظراته الصائبة جعل التوحيد الأســاس الأصلي له ، واستنتج بقية المعارف الاعتقادية منه ولم يغفل في هذا عن أصغر نكتة ثم استنتج منه الأخلاق الفاضلة وبينها بطرق واضحة جلية ثم بين أعمال الأنسان وأفعاله الفردية والاجتماعية وذكر وظائفه حسب ما تدل عليه الفطرة الانسانية ، محيلاً التفاصيل الى السنة النبوية .

ومن مجموع الكتــاب والسنة نستحصل على الدين الاسلامي بأبعاده البعيدة ، الدين الذي حسب لكل الجهـات الفردية والاجتماعية في كل الأزمان والعصور حسابها الدقيق المتقن وأعطى حكمها خالياً عن التضاد والتدافع في أجزائه ومواده .

الاسلام الدين الذى يعجز عن تصور فهرس مســائله اكبر حقوقي في العالم طيلة حياته .

وأما اعجاز القرآن في أسلوبه البياني، فان اسلوب القرآن البياني كان من نسخ اللغة العربية في عصرها الذهبي الذي كانت الأمة العربية تتمتع فيه بالفصاحة والبلاغة ، وأسلوب القرآن كان شعلة وهــــاجة تسطع في ذلك العصر . والعرب فقدت الفصاحة والبلاغة في القرن الأول الهجري على أثر الفتوحات الاسلامية وخلط العرب بغيرهم من الأعاجم والبعيدين عن اللغة واصبحت لغة التخاطب العربية كبقية اللغـــات فاقدة ذلك الاشراق البلاغي وتلك اللمعة المضيئة . ولكن اعجاز القرآن

ليس في أسلوبه الخطابي اللفظي فقط ، فانه يتحدى الناس في أسلوبه اللفظي والمعنوي .

ومع ذلك فان الذين لهم المام باللغة العربية شعرها ونثرها لا يمكنهم الشك في أن لغة القرآن لغة في منتهى العذوبة والفصاحة تتحير فيها الافهام ولا يمكن وصفها بالالسن. ليس القرآن بشعر ولا نثر ، بل أسلوب خاص يجذب جذب الشعر الرفيع وهو سلس سلالة النثر العالي ، لو وضعت آية من آياته أو جملة من جمله في خطبة من خطب البلغاء أو صفحة من كتابة الفصحاء لأشرق كاشراق المصباح في الارض المظلمة .

ومن الجهات المعنوية غير اللفظية احتفظ القرآن على اعجازه فان البرامج الاسلامية الواسعة الشاملة للمعارف الاعتقادية والأخلاقية والقوانين العملية الفردية والاجتماعية ، والتي نجد أسسها وأصولها في القرآن الكريم خارجة عن نطاق قدرة الانسان ، وخاصة في انسان عاش كحياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيئته وأمته .

محال نزول كتاب كالقرآن على وتيرة واحدة ومتشابهة الأجزاء في مدة ثلاث وعشرين سنة في ظروف مختلفة وأحوال متفاوتة ، في الخوف والاضطراب والأمن والسلامة ، في الحرب والسلم ، في الخلوة والوحدة والازدحام والاجتماع ، في السفر والحضر .. تنزل سورة سورة وآية آية ولا يوجد بينها اختلاف وتناقض وتهافت .

والخلاصة كل الأوصاف التي كانت متوفرة في قرآن محمد موجودة في هذا القرآن بلا تغيير ولا تحريف ولا تبديل بالاضافة إلى أن الله تعالى أخبر أن القرآن مصون عن كل تغيير فقال : « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

وقال : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[2] .

بمقتضى هذه الآيات القرآن مصون عن كل ما يخدش بكرامته والله تعالى هو الحافظ له ، وخاصة انه الهادي الى المعارف الحقة فيجب أن يكون مصوناً كذلك .. ولأن الله تعالى وعد بحفظه نجده محفوظاً عن كل عيب ونقص بالرغم من مرور أربعة عشر قرناً من نزوله وترصد ملايين الأعداء الألداء للحط من كرامته ، وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي دام هذا الزمن الطويل ولم يطرأ عليه التغيير والتبديل .

قراءة القرآن وحفظه وروايته :

سبق القول منا مكرراً أن جماعة خاصة في حياة الرسول اشتغلوا بقراءة القرآن وتعليمه وتعلمه ، كانوا يستمعون الى الآيات التي تنزل على النبي تدريجاً فيحفظونها ، وفي بعض الأحيان كانوا يقرأونها عنده ليستمع اليهم .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة السجدة : ٤٢ .

كان بعضهم مصدراً للتعلم ، وكان الذين يأخــذون منهم القراءة يروونها عنهم بصورة مسندة ، وكثيراً ما كانوا يحفظون القراءة المروية عن الأستاذ .

كان مثل هذا الحفظ والرواية هو مقتضى طبع العصر ،لأن الخط المعمول في ذلك الزمن هو الخــط الكوفي الذي كانت الكلمة تقرأ فيه بعدة وجوه ، فكان لا بد من التلقي من الاستاذ والحفظ والرواية عنه .

ومن جهة أخرى كانت العـامة تعيش في أمية لا تقرأ ولا تكتب ، وليس لهم طريق للضبط الا الحفظ والرواية ، وبقيت هذه السنة متبعة في العصور التالية أيضاً .

طبقات القراء :

الطبقة الأولى من القراء هم قراء الصحـابة الذين اشتغلوا بالتعليم والتعلم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان جماعة منهم قد جمع القرآن كله ، ومنهم امرأة تسمى بأم ورقة بنت عبد الله بن حارث [١] .

(يراد بالجمع المنسوب في الأحاديث الى اربعة من الانصـار أو خمسة أو ستة أو اكثر انهم تعلموا وحفظوا القرآن كلـه لا التأليف وترتيب السور والآيات في مصحف ، والا لم يبق مجال للتأليف والترتيب في زمن الخليفة الأول والثالث . وما نراه في

(١) الاتقان ١/٧٤ .

بعض الأحاديث من ان النبي كان بنفسه يعين ويشخص موضع الآيات والسور ومكان وضعها ، فهذا شيء تكذبه عامة الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) .

وعلى ما يقوله بعض العلماء اشتهر جماعة من هذه الطبقة بتعليم قراءة القرآن، وهم عثمان وعلي عليه السلام وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وابو موسى الأشعري[١] .

الطبقة الثانية : تلامذة الطبقة الأولى ، وهم من التابعين والمعروفين منهم الذين كانت لهم حلقات تعليم القرآن في مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام ، وهي المدن التي أرسل اليها مصحف الامام كما ذكرنا سابقاً .

وفي مكة عبيد بن عمير وعطاء بن ابي رياح وطاوس ومجاهد وعكرمة وابن ابي مليكة وغيرهم .

وفي المدينة ابن المسيب وعروة وسالم وعمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار وعطاء بن يسار ومعاذ القاري وعبد الله بن الاعرج وابن شهاب الزهري ومسلم بن جندب وزيد بن أسلم.

وفي الكوفة علقمة والاسود ومسروق وعبيدة وعمرو بن شرحبيل وحارث بن القيس وربيع بن خيثم وعمرو بن ميمون وابو عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش وعبيد بن نفلة وسعيد ابن جبير والنخعي والشعبي .

---

(١) الطبقات المذكورة في هذا الفصل هي التي ذكرها السيوطي في كتابه الاتقان ، ويراجع الى الكتب الرجالية لمعرفة تراجم هؤلاء تفصيلاً .

وفي البصرة ابو عالية وابو الرجاء ونصر بن العاصم ويحيى ابن يعمر وحسن البصري وابن سيرين وقتادة .

وفي الشام مغيرة بن ابي شهاب من اصحاب عثمان وخليفة ابن سعد من أصحاب ابي الدرداء الصحابي .

الطبقة الثالثة : التي تنطبق تقريباً على النصف الأول من القرن الثاني ، وهم جماعة من مشاهير أئمة القراء أخذوا من الطبقـــة الثانية :

في مكة عبد الله بن كثير احد القراء السبعة وحميد بن قيس الأعرج ومحمد بن أبي محيصين .

وفي المدينة ابوجعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن النفاح و نافع ابن نعيم احد القراء السبعة .

وفي الكوفـة يحيى بن وثاب وعاصم بن ابي النجود أحد القراء السبعة وسليمان الاعمش وحمزة احد القراء السبعة والكسائي أحد القراء السبعة .

وفي البصرة عبد الله بن ابي اسحاق وعيسى بن عمر وابو عمر وبن العلاء احـد القراء السبعة وعاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي .

وفي الشام عبد الله بن عامر احد القراء السبعة وعطية بن قيس الكلابي واسماعيل بن عبدالله بن مهاجر ويحي بن حارث وشريح بن يزيد الحضرمي .

الطبقة الرابعة : تلامذة الطبقة الثالثة والرواة عنهم كابن

عياش وحفص وخلف ، وسنذكر المشهورين منهم في الفصل الآتي .

الطبقة الخامسة : طبقة أهل البحث والتأليف ، وهم كما قيل : اول من ألف في القراءة [1] ابو عبيد قاسم بن سلام ثم احمد بن جبير الكوفي ثم اسماعيل بن اسحاق المالكي من اصحاب قالون الراوي ثم ابو جعفر بن جرير الطبري ثم مجاهد . وبعد هؤلاء اتسعت دائرة البحوث والتحقيقات حتى كتب أمثال الداني والشاطبي [2] رسائل كثيرة نظماً ونثراً .

القراء السبعة :

اشتهر كثيراً سبعة من قراء الطبقة الثالثة وأصبحوا المرجع في علم القراءة وغطوا على القراء الآخرين ، وهكذا اشتهر لكل واحد من هؤلاء السبعة راويان من بين الرواة الذين لا يعدون حصراً ، والقراء السبعة مع الراويين عنهم هذه أسماؤهم :

١ – ابن كثير مكي [3] والراوي عنه قنبل وبزي يرويان

(١) ريحانة الأدب ٢/١٤١ ، والاتقان ١/٧٥ .

(٢) أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي ، من مشاهير القراء صاحب التآليف الكثيرة ، توفي سنة ٤٤٤ هـ.

الشاطبي من معاريف القراء والحفاظ ، له القصيدة الشاطبية في القراءة وهي في ١١٢٠ بيت ، توفي في القاهرة سنة ٥٩٠ هـ.

(٣) عبد الله بن كثير المكي، أخذ القراءة من عبد الله بن الصائب الصحابي ومجاهد عن ابن عباس عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، توفي في مكة سنة ١٢٠ هـ.

عنه بواسطة واحدة .

٢ — نافع مدني [١] ، والراوي عنه قالون وورش .

٣ — عاصم كوفي [٢] ، والراوي عنه ابو بكر شعبة بن العياش وحفص، والقرآن الموجود عند المسلمين اليوم هو بقراءة عاصم هذا برواية حفص .

٤ — حمزة كوفي [٣] ، والراوي عنه خلف وخلاد يرويان عنه بواسطة .

٥ — الكسائي كوفي [٤]، والراوي عنه دوري وابو الحارث.

---

(١) نافع بن عبد الرحمن بن نعيم الأصفهاني المدني ، أخذ القراءة عن زيد ابن القعقاع القاري وأبي ميمونة مولى أم سلمة ، توفي في المدينة سنة ١٥٩ أو ١٦٩ هـ.

(٢) عاصم بن أبي النجود ، كوفي مولى بني حذيفة ، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وعن سعد بن أياس الشيباني ورز بن حبيش ، توفي في الكوفة سنة ١٢٧ — ١٢٩ هـ.

(٣) حمزة بن حبيب الزيات التميمي ، كوفي فقيه قارىء ، أخذ القراءة عن عاصم وأعمش والسبيعي ومنصور بن المعتمر ، وأخذ أيضاً عن الامام السادس الامام الصادق عليه السلام وكان من أصحابه ، وله تآليف كثيرة وهو أول من ألف في متشابهات القرآن ، توفي سنة ١٥٦ هـ.

(٤) علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز الفارسي ، كوفي بغدادي من أئمة النحو والقراءة ، أستاذ الأمين والمأمون ومؤدبها ، أخذ النحو عن يونس النحوي وخليل بن أحمد الفراهيدي، وأخذ القراءة عن حمزة وشعبة بن عياش توفي سنة ١٧٩ — ١٩٣ قرب الري عندما كان بصحبة هارون في سفره الى طوس .

٦ – ابو عمرو بن العلاء بصري [١]، والراوي عنه دوري وسومي يرويان عنه بواسطة .

٧ – ابن عامر [٢] ، والراوي عنه هشام [٣] وابن ذكوان يرويان عنه بواسطة .

ويتلو القراءات السبع في الشهرة القراءات الثـلاث المروية عن ابي جعفر ويعقوب وخلف [٤] .

وهناك قراءات أخرى غير مشهورة ، كالقراءات المذكورة عن بعض الصحابة والقراءات الشاذة التي لم يعمل بها، وقراءات متفرقة توجد في أحـــاديث مروية عن أئمة أهل البيت عليهم

---

(١) أبو عمرو زبان – بفتح الزاي وتشديد البـاء – بن العلاء البصري البغدادي ، من مشاهير علماء الأدب وأساتذة القراءة ، أخذ القراءة من التابعين توفي في الكوفة سنة ١٥٤ – ١٥٩ .

(٢) عبد الله بن عامر الشافعي الدمشقي ، أخذ القراءة عن أبي الدرداء الصحابي وأصحاب عثمان ، توفي في دمشق سنة ١١٨ هـ .

(٣) اختلفوا في الرواة عن القراء السبعة ، والذي ذكرناه هنا مطـابق لما ذكره السيوطي في كتابه « الاتقان » – فلاحظ .

(٤) أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، مدني مولى أم سلمة ، يروي قراءته عن عبدالله بن عياش المخزومي وابن عباس وأبي هريرة عن النبي ، توفي في المدينة سنة ١٢٨ – ١٣٣ هـ.

يعقوب بن اسحاق البصري الحضرمي ، من أئمـــة الفقه والأدب ، يروي قراءته عن سلام بن سليمان عن عاصم عن السلمى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، توفي سنة ٢٠٥ هـ.

خلف بن هشام البزاز ، من أئمة القراءة ، وهو أيضاً راوي قراءة حمزة ، أخذ القراءة عن مالك بن انس وحماد بن زيد ، وأخذ عنه أبو عوانة ، توفي سنة ٢٢٩ هـ.

السلام ، إلا أنهم أمروا أصحابهم باتباع القراءات المشهورة .

ويعتقد جمهور علماء السنة بتواتر القراءات السبع ، حتى فسر بعضهم الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «نزل القرآن على سبعة أحرف»[1] بالقراءات السبع، وقد مال الى هذا القول بعض علماء الشيعة ايضاً ، ولكن صرح بعض بأن هذه القراءات مشهورة وليست بمتواترة .

قال الزركشي في البرهان : والتحقيق انها متواترة عن الائمة السبعة ، أما تواترها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ففيه نظر فان اسنادهم بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات وهي نقل الواحد عن الواحد [2] .

وقال مكي : من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطاً عظيماً . قال : ويلزم من هذا أيضاً أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم ووافق خط المصحف أن لا يكون قرآناً وهذا غلط عظيم ، فان الذين صنفوا القراءات من الأئمة المتقدمين كأبي عبيد القاسم بن سلام وابي حاتم السجستاني وابي جعفر الطبري واسماعيل القاضي قد ذكروا أضعاف هؤلاء .

---

(١) بحار الأنوار مجلد القرآن ، والصافي في مقدماته ، وقد روى في الاتقان ١/٤٧ هذا الحديث عن واحد وعشرين صحابياً ، وقد ادعى بعض تواتر هذا الحديث أيضاً .

(٢) الاتقان ١/٨٢ .

وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة ابي عمرو ويعقوب وبالكوفـة على قراءة حمزة وعاصم وبالشام على قراءة ابن عامر وبمكة على قراءة ابن كثير وبالمـدينة على قراءة نافع واستمروا على ذلـك ، فلما كان على رأس الثلاثمـائة أثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب .

قال : والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجل منهم قدراً أو مثلهم اكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيراً جداً ، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به فنظروا الى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصراً إماماً واحداً ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة به كقراءة يعقوب وابي جعفرٍ وشيبة وغيرهم .

قال : وقد صنف ابن جبر المكي مثل ابن مجاهد كتاباً في القراءات ، فاقتصر على خمسة اختار من كل مصر اماماً، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التي أرسلهـا عثمان كانت خمسة الى هذه الأمصار، ويقال انه وجه بسبعة هذه الخمسة ومصحفاً الى اليمن ومصحفاً الى البحرين، لكن لما لم يسمع لهذين المصحفين خبراً واراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين واليمن قارئين كمل بهما العـدد ، فصادف

ذلك موافقة العدد الذي ورد الخبر فيه فوقع ذلك لمن لا يعرف أصل المسألة ولم تكن له فطنة فظن أن المراد بالاحرف السبعة القراءات السبع ، والاصل المعتمد عليه صحة السنـد في السماع واستقامة الوجه في العربية وموافقة الرسم [1] .

وقال القراب في الشافي : التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة ، وانمـا هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر وأوهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك ؛ وذلك لم يقل به أحد [2] .

عدد الآيات :

عد الآيات القرآنية ينتهي الى زمن الرسول صلى الله عليـه وآله وسلم، فقد روي عنه بعض الاحاديث التي يذكر فيها عدد خـاص من آيات سورة كآيات عشر من سورة آل عمران مثلاً وحتى روي عنه عـدد آيات بعض السور أيضاً كسورة الفاتحة سبع آيات [3] وسورة الملك ثلاثون آية [4] .

واختلفوا في عددمجموع الآيات على ستة أقوال ذكرها الداني: فقيل ستة الاف آية ، وقيل ستة آلاف ومائتـان وأربع آيات

---

(١) الاتقان ٨٢/١ .
(٢) الاتقان ٨٣/١ .
(٣) الاتقان ٦٨/١ .
(٤) الاتقان ٦٨/١ .

وقيل ستة آلاف ومائتان وأربع عشرة آية ، وقيل ستة آلاف ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون آية، وقيل ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية [1].

قولان من هذه الأقوال الستة لأهل المدينة ، وأربعة أقوال لاهل بقية المدن التي أرسل اليها مصحف عثمان ، وهي مكة والكوفة والبصرة والشام .

وكل صاحب قول من هذه الاقوال يسند رأيه الى بعض الصحابة ، ثم يعتبرونها روايات موقوفة فينسبونها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن هنا اعتبر الجمهور عدد الآيات والتمييز بينها توقيفياً .

لاهل المدينة عددان كما ذكرنا [2] أحدهما لابي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح ، والثاني عدد اسماعيل بن جعفر بن ابي كثير الانصاري .

وعدد أهل مكة هو عدد ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبي بن كعب .

وعدد أهل الكوفة عدد حمزة والكسائي وخلف ، ويرويه حمزة عن ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي عليه السلام .

وعدد أهل البصرة عدد عاصم بن العجاج الجحدري .

---

(١) الاتقان ١/٦٩ .

(٢) نقله في الاتقان ١/٦٩ عن أبي عبد الله الموصلي .

وعدد أهل الشام عدد ابن ذكوان وهشام بن عمار وينسب الى ابي الدرداء . والاختلاف في عدد مجموع الآيات أتى من قبل الاختلاف في عدد آية كل سورة . وقد ذكروا أيضاً عدد حروف وكلمات سور القرآن وعدد المجموع، ولكن لا يهمنا الآن ذكر التفاصيل هنا .

اسماء السور :

تقسيم القرآن الكريم الى السور تقسيم قرآني كتقسيمه الى الآيات ، وقد صرح تعالى في مواضع بلفظة «السورة» ، فقال « سورة أنزلناها »[1] و « إذا أنزلت سورة »[2] و « فاتوا بسورة من مثله »[3] .

وتسمية السور تناسب مع موضوع ذكر فيها او جاء الاسم نفسه فيها كسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الاسراء وسورة التوحيد، وفي نسخ القرآن القديمة كثيراً ما كانوا يكتبون «سورة تذكر فيها البقرة» و «سورة يذكر فيها آل عمران» .

وربما تكون جملة من سورة معرفاً لها كسورة إقرأ باسم ربك وسورة إنا أنزلناه وسورة لم يكن وأشباهها .
واحياناً يكون وصف السورة معرفاً لها كسورة فاتحة

---

(١) سورة النور : ١ .
(٢) سورة التوبة : ٨٤ .
(٣) سورة البقرة : ٢٣

الكتاب[1] وسورة أم الكتاب والسبع المثاني وسورة الاخلاص[2] وسورة نسبة الرب وأمثالها .

ان هذه الأسماء والنعوت كانت موجودة في الصدر الأول بشهادة الآثار والتاريخ ، وحتى أسماء بعض السور جاءت في الأحاديث النبوية كسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة هود وسورة الواقعة . ولهذا يمكن القول بأن كثيراً من هذه الأسماء تعينية من زمن الرسول نتيجة لكثرة الاستعمال ، وليس شيء منها توقيفياً شرعياً .

خط القرآن واعرابه :

كانوا يكتبون القرآن الكريم في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقرن الاول والثاني الهجري بالخط الكوفي ، وللابهام الموجود في كثير من كلمات الخط الكوفي تداول الصحابة وغيرهم الحفظ والرواية والقراء كما ذكرنا ، ومع هذا بقي شيء من الالتباس والابهام للعامة واختص الحفاظ والرواة بالقراءة الصحيحة فقط ، فلم يكن من الميسور فتح المصحف وقراءته بصورة صحيحة .

---

(١) سورة الحمد تسمى « فاتحة الكتاب » بمناسبة وقوعها أول القرآن وتسمى « السبع المثاني » بمناسبة أنها سبع آيات .

(٢) سورة قل هو الله أحد تسمى بـ « الاخلاص » بمناسبة اشتمالها على التوحيد الخالص وتسمى « نسبة الرب » بمناسبة أنها تصف الله تعالى ، لأن النسبة هنا بمعنى الوصف .

ومن هنا وضع ابو الأسود الدئلي [1] أسس علم العربية بارشاد من الامام امير المؤمنين عليه السلام ، كما وضع فيما بعد نقط الحروف بأمر الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان .

وهكذا قلّ الالتباس وارتفع شيء من الابهام الا انه لم يزل بالكلية ، حتى وضع الخليل بن احمد الفراهيدي [2] مكتشف علم العروض اشكالاً لكيفية تلفظ تلك الحروف: المد، التشديد الفتحة ، الكسرة ، الضمة ، السكون ، التنوين مع احدى الحركات الثلاث، الروم، الاسمام . وبهذا ارتفع الالتباس تماماً.

وكان قبل وضع الفراهيدي [3] تلك العلامات يشيرون بالنقاط الى الحركات : فعوضاً عن الفتحة نقطة في أول الحرف وعوضاً عن الكسرة نقطة تحته ، وعوضاً عن الضمة نقطة على الحرف في آخره . ولكن هذه الطريقة كانت تزيد في الالتباس في بعض الحالات .

(١ – ٣) الاتقان ١٧١/٢ .

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث
وحي القرآن الكريم

الفصل الرابع
القرآن والعلوم

الفصل الخامس
ترتيب نزول القرآن وانتشاره

الصفحة